تقاطعات العامية والفصحى في اللسان العربي المعاصر

الازدواجية في اللغة العربية من منظور سوسيولوجي

علي أسعد وطفة

مجلة التربية

مجلة محكمة للبحوث التربوية

تصدر عن كلية التربية جامعة الأزهر

العدد 151 / ديسمبر 2112

(صص 555 – 404)

تقاطعات العامية والفصحى في اللسان العربي المعاصر

الازدواجية في اللغة العربية من منظور سوسيولوجي

علي أسعد وطفة

مجلة التربية

مجلة محكمة للبحوث التربوية

تصدر عن كلية التربية جامعة الأزهر

العدد 151 / ديسمبر 2112

(صص 555 – 404)

مجلـــــة
التربيــــــة

مجلة مُحَكَّمَة
للبحوث العلمية والتربوية والنفسية والاجتماعية

العدد: ١٥١ الجزء الأول
ديسمبر ٢٠١٢م – صفر ١٤٣٤هـ

تقاطعات العامية والفصحى في اللسان العربي المعاصر

الإزدواجية في اللغة العربية من منظور سوسيولوجي

مقدمة:

ينظر كثير من الباحثين إلى ازدواجية اللغة العربية بوصفها إشكالية لغوية صرفة، ولكن من يتأمل في أعماق هذه القضية ويمعن في تأمله سيجد أنها إشكالية بنيوية تعكس صورة الانكسار الحضاري المزمن الذي تعيشه الأمة العربية منذ أمد بعيد. فالتشاكل بين العامية والفصحى ليس مجرد معضلة لسانية كما يبدو للمتأمل في الوهلة الأولى، بل هي تعبير عن أزمة حضارية تتسم بطابع العمق والشمول في الحياة العربية المعاصرة.

لقد فرضت الازدواجية في اللغة العربية نفسها على نحو إشكالي في صيغ وتجليات مختلفة تباينت بتباين العصور والمراحل التاريخية للأمة. فالازدواجية اللغوية بين العامية والفصحى في العصر العباسي ليست مثلها في العهد العثماني، وليست كحالتها في مرحلة الركود الحضاري الشامل الذي نعيشه اليوم. ففي مراحل الازدهار كانت الازدواجية اللسانية تعبيرا عن حالة تقدم حضاري، حيث فرض حضور اللغة العربية المظفر وتوسعها في البلدان الإسلامية ظهور مستويات لغوية تتباعد أو تتقارب من اللغة العربية الفصيحة. أما اليوم فإن هذه الازدواجية تبدو أكثر عمقا وخطورة، وهي تعبر عن حالة انكسار حضاري شامل يفرض ثقله على الأمة العربية ليشكل أحد أكبر التحديات الممانعة لحداثة الأمة ونهضتها.

وإذا كانت الازدواجية اللغوية تشكل حالة طبيعية في مختلف لغات العالم فإن هذه الازدواجية تشكل ظاهرة مرضية في مجتمعاتنا العربية، وتعبر عن حالة التردي والهزيمة الحضارية التي تعيشها هذه الأمة في حاضرها نظرا لاختلال العلاقة بين الفصحى والعامية. لقد فرض الانكسار الحضاري الذي تعيشه الأمة حالة من التردي اللساني، وأدى إلى اهتزاز العلاقة بين اللغة والحضارة، ففقدت العلاقة بين الفصحى والعامية ذلك التوازن الخلاق الذي كان يتميز بقوته وخصوبته، وتحولت تلك العلاقة إلى ظاهرة مرضية خانقة تفرض نفسها اجتماعيا وأخلاقيا وسياسيا في مختلف طبقات الحياة والوجود في المجتمعات العربية المعاصرة.

ونظرا لخطورة هذه القضية وعمق ارتباطها بالإشكالية الحضارية للأمة، تناول الباحثون والمفكرون العرب هذه الظاهرة بالدراسة والبحث والتحليل، وفي سياق هذا التناول اختلفوا في رؤيتهم لهذه القضية، فعكست مواقفهم منظومة الاتجاهات الأيديولوجية والفكرية السائدة في المنطقة العربية بين الاتجاهات الليبرالية والأصولية والقومية والتغريبيّة والانفصالية.

وتشكل تلك المواقف والاتجاهات الفكرية من إشكالية الفصحى والعامية بدورها قضية تستحق الاهتمام والتفكير، فهذه التيارات الأيديولوجية المتغالبة تعبر في ذاتها عن واقع التخلف الحضاري الذي تعانيه الأمة. فالبلدان التي حققت حداثتها تركت خلفها – منذ أمد بعيد – مثل هذه الصراعات والخلافات الأيديولوجية حول إشكاليات الازدواجية في اللغة، وبدأت تتجه إلى خلافات من نوع جديد تتعلق بالفاعلية الحضارية اللسانية لهذه الأمم والدول. وتتمثل هذه القضية في الدول المتقدمة في فرنسا وبريطانيا وغيرهما من البلدان في استراتيجيات لسانية تهدف إلى وضع اللغات القومية في مركز المنافسة والهيمنة والسيطرة، وتحقيق أكبر نفوذ لساني في العالم المعاصر. ونحن اليوم ما زلنا في طور الصراع والانقسام بين مؤيد للفصحى ومنتصر للعامية. ويدرك جمع المهتمين بقضايا اللغة العربية حاليا أن الصراع الفكري ما زال على أشده بين فقهاء اللغة وعلماء اللسانيات حول طبيعة العلاقة بين الفصحى والعامية. فقد دأب علماء الأمة على افتعال الصراع في كل صغيرة وكبيرة، وغفلوا عن المقاصد الموضوعية للبحث العقلاني النقدي الذي لا يترك للأيديولوجيا مكانا في هذا الصراع والخلاف الدائر.

ولا تزال المواقف الفكرية من ازدواجية اللغة العربية متضاربة متداخلة متراكبة، تبدأ من التناقض الكلي إلى التوافقات الجزئية، فهناك من يرفض العامية رفضا مطلقا ويعلي شعار الفصحى والفصيحة، وهناك من ينتصر للعامية ويدعو إلى إلغاء الفصحى ووضعها في متاحف التاريخ، وهناك من يرى ضرورة تفصيح العامية بتعميم الفصحى، أو تعميم الفصحى بتفصيح العامية، وهناك من يريد الارتقاء بالعامية وتقعيدها على منوال الفصحى. وهذه المواقف المتناقضة والمتضاربة تدل في جوهرها على البعد الأخلاقي والإنساني والسياسي والحضاري لإشكالية الازدواجية اللغوية في ثقافتنا المعاصرة.

١- إشكالية الدراسة:

تمثل قضية الازدواجية اللغوية مسألة إشكالية معقدة التكوين إذا ما أخذنا هذه المسألة في سياقها الحضاري والتاريخي. ويجب أن نعترف في هذا المقام أن عددا كبيرا من المفكرين والباحثين العرب تناولوا هذه القضية على نحو إشكالي منذ عصر النهضة العربية حتى اليوم، وأن عدد المقالات والدراسات التي أجريت في هذا المضمار يفوق حدود الحصر، حتى يخال للمتأمل أن هذه القضية أخذت حقها من البحث والتمحيص، ولم يترك من هذه القضية البحثية مزيد لمستزيد.

ومع أهمية كل ما كتب عن العامية والفصحى فإن هذه الإشكالية ما زالت تأخذ أبعادا جديدة في ضوء الحادثات والتطورات في مستوى واقع اللغة كما في مستوى النظريات والأدوات المنهجية المتاحة. وما زالت هذه القضية تتطلب مزيدا من البحث والدراسة والتقصي في ضوء التطورات الجديدة والمعطيات الجديدة لحالة الانفصام الوجودي بين شطري اللغة العربية: عاميتها وفصحاها، وستبقى هذه القضية مضمارا حيّا للبحث العلمي والفكري مادامت هذه الإشكالية تفرض نفسها في الحياة الثقافية للمجتمعات العربية المعاصرة.

وما يؤسف له اليوم أن هذه الظاهرة تستفحل وتأخذ ملامح جديدة في ضوء التطورات الحضارية الحادثة، وأبرز معطيات هذا التحول ما يشهده عالم اللسانيات المعاصر من تطور في مجال تكنولوجيا اللغات الرقمية واتساع رقعة العامية وانتشار اللغات الأجنبية وظهور عاميات جديدة.

ويمكن القول بأن هذه المسألة تأخذ أبعادا جديدة في المناخ المتجدد للحياة المعاصرة، فالعولمة وتنامي اللغات الأجنبية - ولاسيما الإنكليزية - والتطورات الحادثة في مجال التقانة وتكنولوجيا الاتصال، كل هذه المعطيات تشكل بيئة لغوية جديدة تتفاعل معها الازدواجية اللغوية وتأخذ صورا مختلفة تتباين بتباين الزمان والمكان وصيرورة الحالة الحضارية الثقافية.

وفي عمق هذه التحولات وفي غمرة هذه الأعمال العلمية التي تناولت إشكالية الازدواجية في اللغة العربية نستطيع القول بأن ميدان البحث ما زال في طور الخصوبة، ولاسيما فيما يتعلق بإشكالية مفاهيم الازدواجية اللسانية في اللغة العربية، والتي ما زالت تفرض نفسها بغموضها وتباين الآراء والاتجاهات حول حدودها وأبعادها في المرحلة الراهنة. فمنهجيات البحث آخذة في التطور، والنظريات اللسانية تطالعنا في كل

يوم بتصورات جديدة حول الازدواجية اللغوية، وما زال الواقع يحمل في طياته كل الجدة المتعلقة بالأوضاع اللسانية. وفي ضوء هذه التطورات الجديدة والمستجدات الحادثة لا بدّ من إعادة النظر في قضايا اللغة ولاسيما في مسألة الازدواجية اللسانية بوصفها إحدى القضايا الشائكة المعقدة في بنية حضارتنا وثقافتنا المعاصرة. ومن هذا المنطلق تأتي هذه الدراسة لتشكل محاولة متواضعة جديدة في تقصي حدود وأبعاد البناء المفاهيمي لإشكالية الازدواجية في اللغة العربية المعاصرة.

وفي دائرة هذا التشاكل اللساني ستحاول المقالة أن تقدم إجابات واضحة حول طبيعة العلاقة بين الفصحى والعامية في بنية اللغة العربية،و تقديم تعريفات واضحة لمختلف المفاهيم التي تدور في فلك الازدواجية اللغوية المعاصرة.

٢- أسئلة الدراسة:

تنطلق هذه الدراسة من سؤال رئيس قوامه: ما طبيعة العلاقة بين العامية والفصحى في اللغة العربية وما حدود التشاكل القائم بينهما في مختلف السياقات الحضارية المعاصرة؟ وتهدف الدراسة إلى تقديم الإجابة عن الأسئلة المنهجية التالية:

١- ما حدود الازدواجية اللغوية وأبعادها في ضوء الدراسات السوسيولوجية المعاصرة؟

٢- ما حدود التشاكل وأبعاده بين العامية والفصحى في مستوى الظاهرة والمفاهيم؟

٣- ما مواقف الباحثين والكتاب العرب من ظاهرة التشاكل بين العامية والفصحى؟

٤- ما أوجه التناقض بين العامية والفصحى في السياق الحضاري المعاصر؟

٥- هل تشكل العامية خطرا على الفصحى وعلى اللغة؟

٦- هل يمكن تحقيق المصالحة بين العامية والفصحى وما طبيعة هذه المصالحة؟

٣- منهج البحث:

يلاحظ الدارسون والمتأملون في قضية العلاقة بين العامية والفصحى غلبة النزعات الأيديولوجية الخالصة على روح البحث والتقصي في هذا الميدان. كما يلاحظ العارفون أن لغة الانفعال والهجوم هي اللغة التي تسيطر على البحث العلمي في مجال البحث اللغوي المعاصر. ولعل هذا ناجم عن الارتباط الجوهري بين قضية اللغة والاتجاهات الأيديولوجية الكبرى. فأصحاب النزعة القومية والإسلامية يتعصبون للغة العربية

الفصحى بأشكالها ومبانيها التقليدية القديمة، ويرفضون أي محاولة للتغيير والتطوير في بنية اللغة وتكويناتها. وهناك فريق من الحداثيين والمتغربين يرفض قطعيا التعامل باللغة الفصحى وينادي باللغة العامية لغة وطنية وقومية. وثمة فريق يرفض اللغة العربية بقضها وقضيضها ويدعو إلى الاستعاضة عنها باللغات الأجنبية. وهناك فريق معتدل يدعو إلى تطوير اللغة الفصحى بما يناسب معطيات العصر، وفريق آخر معتدل أيضا ينادي بإيجاد حالة المصالحة بين الفصحى والعامية.

ونظرا لهذا التنوع الأيديولوجي نجد الباحثين غالبا ما يقعون تحت تأثير ميولهم الأيديولوجية في معالجة الظاهرة اللغوية بشكل عام وظاهرة الازدواجية اللغوية بشكل خاص. وهذه الميول الأيديولوجية أفقدت هذه البحوث قيمتها ومصداقيتها وموضوعيتها. ويلاحظ الباحثون في هذا المضمار أن لغة البحث المستخدمة قد تنحدر إلى الشتم واللعن والهجوم اللفظي ضد الخصوم بطريقة يندى لها الجبين خجلا. ونعتقد أن معالجة هذه الظاهرة تحتاج اليوم إلى روح علمية وإلى منهجية موضوعية صارمة تتوخى الدقة والحذر والعقلانية والموضوعية في تناول مسألة اللغة، بعيدا عن التعصب والتشنج والقدح والمدح والانتصار ومشاعر الهزيمة. ونعتقد أن المنهجيات السوسيولوجية الجديدة تشكل المنهجية المناسبة لتناول هذه الظاهرة بعيدا عن حالة الانفعال اللغوي التي غالبا ما تظهر على الكتاب العرب في تناولهم لهذه الظاهرة .

وتأسيسا على ما تقدم فإن الدراسة ستستخدم في تناول هذه القضية المنهج الوصفي التحليلي بما ينطوي عليه من خطوات منهجية أساسية. وتتبنى الدراسة المنهج السوسيولوجي المعتمد في علم اجتماع اللغة المعاصر. وهذا يعني أن المعالجة ستأخذ مداها بصورة واقعية خارج دائرة الوعي الذاتي أو الاتجاهات الأيديولوجية والنزعات التعصبية.

٤- مسوغات الدراسة:

١- تشكل المسألة اللغوية المتعلقة بالازدواجية قضية حيوية لم تأخذ حظها من الدراسات السوسيولوجية الرصينة، رغم هذا الفيض الكبير من الدراسات الأدبية التي تحمل طابعا أيديولوجيا صرفا. فمعظم الباحثين العرب الذين تناولوا هذه الظاهرة ينتمون إلى كليات الآداب، وأكثرهم متخصص في فقه اللغة، وقلما نجد بين الباحثين العرب علماء اجتماع وأنتروبولوجيين متخصصين في دراسة الظواهر اللغوية. فالطابع الأدبي والطابع الأيديولوجي هو الذي يحكم الدراسات اللسانية

المعاصرة ولاسيما قضايا الازدواجية اللغوية. وغالبا ما نجد أن الباحثين يعالجون هذه الظاهرة من منظور لساني خالص دون الأخذ بمعطيات علم الاجتماع اللغوي والأنثربولوجيا اللغوية السائدة في العالم الغربي.

فعلم الاجتماع اللغوي ما زال غائبا عن الساحة الفكرية في مجال الدراسات اللسانية، ويندر أن نجد فرعا لعلم الاجتماع اللغوي على امتداد الجغرافية الأكاديمية في العالم العربي.

٢-ونعتقد اليوم أن الساحة الفكرية تحتاج في حقيقة الأمر إلى توليد علم اجتماع لغوي عربي يمكنه أن يأخذ دوره في كشف ملابسات القضايا اللسانية في سياقها الاجتماعي وفي دائرة علاقتها مع قضايا المجتمع والحضارة. ونعتقد أن الوقت قد أزف لتوليد علم اجتماع لغوي عربي الهوى والهوية قادر على دراسة الظواهر اللغوية بصورة موضوعية خارج دائرة التناوح والصراع. وهو العلم الوحيد المؤهل اليوم لإيجاد الحلول الموضوعية لقضايا اللغة واللسان في سياق سوسيولوجي حضاري.

٣- ونعتقد أن استغراق البحث اللغوي العربي في مستنقع الصراعات الأيديولوجية جعل من البحث اللغوي صورة للصراخ والصراع والتحدي والمهاترات والابتذال والهجوم والدفاع والسخرية والمناكفة والجدل العقيم. وغالبا ما تعاف النفس قراءة بعض المقالات والأبحاث التي لا تجد فيها غير الهجوم والتحقير على مبدأ أن كل أُمَّةٍ تلعن أختها، وكل فريق يلعن الآخر ويهاجمه. وهذا يعني أنه حان الوقت لإخراج البحث اللغوي من مستنقع الأيديولوجيا. وما يمكن قوله إن هذه الوضعية تشكل اليوم ضرورة تاريخية من أجل بحث علمي سوسيولوجي يتناول اللغة في سياقها التاريخي وفقا لمتغيرات هذه الظاهرة وعوامل تطورها.

٥- مفهوم اللغة:

اللغة اختراع تفرد به الإنسان في مملكة الكائنات الحية، وفي عمق هذا الاختراع تكمن عبقرية الإنسان اللسانية التي مكنته من اختزال الوقائع في رموز وصور وإشارات تتداخل وتتكامل في نظام لغوي بالغ التعقيد. وقد هيأت اللغة، بوصفها ظاهرة اجتماعية نفسية بيولوجية، المخاض لولادة فروع علمية لسانية، تبحث في نشأة اللغة وتاريخها وأشكالها وقانونية وجودها. (وطفة، ٢٠١١، ٢٨٩).

يمكننا تعريف علم اللغة (الذي يسميه بعضهم اللسانيات) Linguistics ببساطة بأنه الدراسة العلمية للظواهر اللغوية بحثا في طبيعتها واستكشافا لأنساق تفاعلاتها الداخلية والخارجية. وعلم اللغة يدرس بنية اللغة فيما يتعلق بأصواتها Phonetics, Phonology وبنية كلماتها Morphology وتشكيلات جملها Syntax ودلالاتها ومعانيها Semantics (حجازي، ١٩٩٧، ١٧). واستطاع رواد هذا العلم أن يطوروا البحث العلمي في هذا المضمار، وأن يؤسسوا لمناهج علمية جديدة تتناسب مع القضايا اللسانية والظواهر اللغوية، واستطاعوا في نهاية الأمر ترسيخ منظومة متكاملة من التقاليد العلمية والمناهج البحثية في مختلف مناحي واتجاهات الظاهرة اللغوية.

وفي خضم التطور الذي شهدته الدراسات والأبحاث اللسانية ظهرت فروع علمية لسانية متعددة أبرزها علم اللغة الاجتماعي(Sociolinguistics) الذي يعنى بدراسة العلاقة بين اللغة والمجتمع بوصفها ظاهرة اجتماعية. ويندرج تحت هذا العلم فروع أخرى كعلم اللهجات (Dialectology)، و التخطيط اللغوي (Language Planning)، والتحول اللغوي (Language Shift)، والموت اللغوي (Language Death).

ويعود إلى دوركهايم Durkheim فضل السبق في النظر إلى اللغة في جوانبها الاجتماعية، ويتبدى ذلك حين يقرر منذ البداية أن اللغة ظاهرة اجتماعية، أو "شيء اجتماعي" بالدرجة الأولى (Grawitz, ١٩٨٤, ٣١٤). وتجد رؤية دوركهايم هذه تعزيزا لها في أفكار جون ديويDewey الذي ينظر إلى اللغة بوصفها نمطا من السلوك الاجتماعي. هذا ويجمع كل من دوركهايم وديوي وساسور Saussure على أهمية العلاقة التي تربط بين اللغة والحياة الاجتماعية، كما يجمعون على أهمية الشروط الاجتماعية للغة بوصفها الإطار الموضوعي لنمو اللغة وتطورها وتباينها بتباين المجتمعات الإنسانية. وتأسيسا على هذا التصور يعلن كثير من الباحثين والدارسين أن البحث اللغوي في مجال المجتمع يمكن من استكشاف معمق لمختلف القضايا الاجتماعية في المجتمع.

واستطاع عالم اللسانيات المعروف إدوار سابير أن يستكشف العلاقة الجوهرية بين اللسانيات والحياة الاجتماعية في دراساته وأبحاثه الأنتروبولوجية المعمقة حول اللغة والمجتمع، فوضع الأسس المنهجية لدراسة العلاقة بين الأنتروبولوجيا واللغة. ويرى سابير في هذا الصدد أن اللغة الأم التي يتكلمها أبناؤها ويفكرون بواسطتها تنظم تجربة المجتمع وتصوغ المعالم الأساسية لوجوده وكينونته الذاتية لأن اللغة – كل لغة –

تنطوي على رؤية مميزة وخاصة للعالم، واستطاع ساسور بعبقريته المعهودة أن يكتشف "أن جزءا كبيرا من العالم الحقيقي يوجد بشكل لاشعوري في العادات اللغوية لشعب ما (بركة، ٢٠٠٢، ٨٤).

وفي هذا الاتجاه يقول عالم النفس الأمريكي دينلاب" Dunlap : "إنه يمكننا أن نعرف أشياء كثيرة عن حياة الشعوب والأمم عن طريق دراسة وتحليل اللغات التي تتكلمها" (عبد الواحد، ١٩٥١، ٩٩).

أما اللغة فيعرفها ابن خلدون بقوله: «اللغة في المتعارف هي: عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل اللسان، ناشئة عن القصد في إقامة الكلام. فلا بد أن تكون ملكة مقررة في العضو العامل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم» (أحمد، ١٩٩١).

ويعد تعريف ابن جنّي (المتوفى ٣٩٢ هـ) للغة في كتابه "الخصائص" من أكثر التعريفات تواترا وتأثيرا إذ يقول في تعريفه: " أما حدّها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم". وهذا التعريف يتضمن في جوهره مختلف المعطيات الحديثة لعلم اللسانيات في مجال تعريف اللغة، ويتوافق مع معظم النظريات الحديثة التى عرّفت اللغة (حجازي، ١٩٩٧، ١٠). ويتطابق تعريف ابن جني مع التعريف الذي جاء في لسان العرب، وفيه " أن اللغة هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم "(ابن منظور، ١٣٠٠، ١١٦).

وجاء في المعجم الرائد عن تعريف اللغة الفصحى بأنها: كل لغة نهجية تخضع لقواعد الصرف والنحو ولأصول التركيب اللغوي. وهي لغة الأدب والعلم ووسائل الإعلام والصلاة وما إليها. وعكسها « اللغة العامية»، وهي اللغة المحكية. (المعجم :الرائد). وجاء في معجم اللغة العربية المعاصر أن اللُّغة العربيَّة الفُصحى: لغة القرآن والأدب، وهي لغة خالصة سليمة من كلِّ عيب، لا يخالطها لفظ عاميّ أو أعجميّ، خلاف العاميّة ". ويحرص الخطباء والدعاة على استخدام الفُصحى في كلامهم، - تذاع نشرات الأخبار باللغة العربية الفُصحى." (معجم : اللغة العربية المعاصر).

فاللغة كما تنص عليه هذه التعريفات القاموسية: ألفاظ وضعت لمعان، وهي لسان القوم به يتعارفون ويتواصلون. هذا يعني أنها كلام يتفق عليها الناس في مجتمع محدد ويحددون نسق الدلالات فيه والمعاني وطرق الاستخدام. ولا يخرج المحدثون كثيرا عن هذا السياق القاموسي في تعريفهم للغة، وعلى هذا النحو يعرف ناصر الدين الأسد اللغة

فيقول: "بأنها ماهية دلالية قوامها حروف وأصوات: حروف حين تكون مكتوبة، وهي أصوات حين تكون ملفوظة منطوقة. ولكنها في دورها وحقيقتها إنما هي معان ومدلولات تصبح أحيانا صورا بيانية وخاصة حين تنضو اللفظة إلى غيرها في سياق من الكلام"(الأسد، ٢٠٠٤، ١٦). " ويتطرق الأسد إلى وظيفة اللغة بوصفها أداة اتصال وتفكير فيقول: " واللغة بما تكتنزه من معان ودلالات وأحاسيس وسيلة للتفكير، كما أنها وسيلة للتعبير والتواصل بين الناس " (الأسد، ٢٠٠٤، ١٧).

ومن أكثر تعاريف اللغة تداولا اليوم التعريف الذي يقول " إن اللغة نظام رمزي يستعمل للاتصال بين بني البشر وهو يتكون من عناصر متناسقة أصغرها الأصوات وأكبرها الجمل والعبارات" (بغول، ٢٠٠٤). واللغة كما يرى عدد كبير من المفكرين أكثر من الكلام وأعمق من الكتابة وأشمل من التفكير، وعلى هذه الصورة يراها يحيى الرخاوي الذي يقول: " إن اللغة هي الأصل، وهي التركيب الغائر للكيان البشري، والكلام إحدى مظاهرها"(الرخاوي، ٢٠٠٣). ويرى السيد "أنّ مفهوم اللغة مفهوم شامل وواسع، لا يقتصر على اللغة المنطوقة، بل يشمل المكتوبة أيضا، والإشارات، والإيماءات، والتعبيرات الوجهية التي تصاحب عادة سلوك الكلام"(السيد، ١٩٨٨، ١١) .

ومن التعريفات الشمولية التي أعطيت للغة التعريف الذي يسوقه محمد عبد القادر أحمد فيقول: "اللغة مجموعة منظمة من الرموز الصوتية أو المكتوبة التي ترمز إلى المعاني والأفكار، يتفاعل بواسطتها أفراد المجتمع الإنساني، ويستخدمونها في أمور حياتهم، وبها يتم التواصل والتفاهم بين الناس، ونقل ثقافة الآباء والأجداد إلى الأجيال القادمة، وهي من هذه الزاوية وسيلة اجتماعية تؤدي وظيفة حيوية في الحياة الإنسانية "(أحمد، ١٩٩١). ويؤكد أحمد على الطابع الرمزي للغة فيقول: " اللغة منظومة رمزية كبرى تشتمل على عدد من الأنظمة الفرعية التي يتألف كل منها من مجموعة من المعاني تقابلها مجموعة من المباني المعبرة عن هذه المعاني، ثم من طائفة من العلاقات التي تربط فيما بينها" (أحمد، ١٩٩١). وتؤكد هذه التعريفات في أغلبها على اللغة بوصفها أداة تفكير وتواصل واتصال في المجتمع وهي ضرورية للاستدلال على المعاني المتوخاة من كل الرموز والمعاني والدلالات المطلوبة .

ويقدم الرخاوي تعريفا يماهي فيه بين اللغة والوعي والوجود فيقول: "اللغة ليست إضافة لاحقة بظاهر الوجود البشري، الفردي أو الجماعي، بل هي الوجود البشري في أرقى مراتب تعقده، إذ هي التركيب الغائر الذي يمثل الهيكل الأساسي الذي يصدر منه السلوك" (الرخاوي، ٢٠٠٣).

ويميز سوسور في بنية اللغة بين صورتين: فهناك اللغة بوصفها ملكة فطرية في الإنسان، وهناك اللغة بوصفها طاقة رمزية مكتسبة. فاللغة في صورتها الأولى قوة فطرية بطبيعتها يزود بها كل مولود بشري، وهي من أهم السمات الفطرية التي تميز الإنسان عن الحيوان. أما اللغة المكتسبة فهي تنويعات لغوية مكتسبة تأخذ صورة نظام من العلامات التي تتحد بمعانيها (De Saussure,١٩٦٨, ٣٢).

ويميز بسام بركة ثلاث سمات أساسية للغة في مفهومها الشامل، هي:

أ- اللغة نظام يتغير بتغير المجتمعات تاريخيا ومكانيا وهي دليل على الواقع الاجتماعي.

ب- اللغة مؤسسة ثقافية واجتماعية وهي نسبية متغيرة واصطلاحية.

ج- تقوم بدور مهم في عملية المعرفة عند الفرد وعند الجماعة على حدّ سواء (بركة، ٢٠٠٥، ٢٥).

وهذا التصور الشامل يركز على أهمية التغاير والصيرورة في بنية اللغة بوصفها مؤسسة اجتماعية ثقافية كما يؤكد على الأداء المعرفي للغة ودورها في بناء الثقافة والوعي.

ونستطيع أن نقول مع الفيتوري بأن اللغة: "منهج فكر، وطريقة نظر وأسلوب تصوير، وهي رؤية متكاملة تمدها خبرة حضارية متفردة، ويرفدها تكوين نفسي مميز، فالذي يتكلم لغة هو في واقع الأمر يفكر بها، فهي تحمل في كيانها تجارب أهلها وحكمتهم وخبرتهم وكلمتهم وبصيرتهم وفلسفتهم" (الفيتوري، ١٩٨٦، ٢٠). وهي "إبداع إنساني يلبي الحاجات الطبيعية والروحية والاجتماعية وهي قابلة دائما لاستيعاب الجديد وهي منهج فكر وأسلوب تصوّر لأننا نفكر بلغتنا التي تعبر عن هويتنا وحكمتنا وتجارب حياتنا وفلسفتنا وتراثنا وبصيرتنا مما يؤكد قدرتها على مواصلة دورها الحضاري واستيعابها للمعرفة البشرية في كل زمان" (محجوب، ٢٠١٢).

ويمكننا أن نستخلص بناء على ما تقدم من تعريفات أن اللغة نظام رمزي ذهني معقد التكوين، يعبر عن هوية مجموعة بشرية، ويرسم حدود حضورها الإنساني في الوجود، وأنها تشتمل على فلسفة المجتمع والبنية الذهنية له وطريقة التفكير فيه، وهي تشكل بنية وظيفية شديدة التعقيد بها يتواصل أفراد الأمة ويتفاعلون ويبدعون إنسانيا ويرسمون حدود تاريخهم وحضارتهم. ويمكن النظر إلى اللغة بوصفها الإطار العام

ويجزم فريق من فقهاء الكلام وعلماء اللسان بأن كل لغة تنطوي في ذاتها على مستويين لغويين. وفي هذا المقام يشير محمد الحباس إلى هذه الازدواجية فيقول:" هناك اللغة التي تستخدم في الحياة اليومية، وهو المستوى اللغوي الذي يلجأ فيه أصحاب اللغة إلى الكثير من التساهل في التعبير كالحذف والإدغام والتسهيل، ميلا مع مبدأ الاقتصاد الذي يشيع في هذا المستوى. وهناك اللغة التي تتميز بمستواها الرفيع الذي يعتمد فيه على اختيار الألفاظ وإخراج الحروف من مخارجها الأصلية والمحافظة الشديدة على القواعد النحوية والصرفية للغة، وبالجملة ففي هذا المستوى يلجأ الناطقون إلى مبدأ التحقيق الذي يقابل مبدأ الاقتصاد"(الحباس، ١٩٩٨، ٢٧٦). ويؤكد الباحثون المعاصرون حضور هذه الازدواجية اللغوية بين لغة للحياة العامة، ولغة أخرى للتفكير والتعليم والبحث العلمي.

ويجري الاعتقاد أن الألماني كرمباخر Krumbacher هو أول من تناول مسألة الازدواجية اللغوية في كتاب له نشر في عام ١٩٠٢ وتناول فيه مسألة الأزدواجية اللغوية في منشئها وأصولها ومراحل تطورها ولا سيما في اللغتين العربية واليونانية. ومن المرجح أن الفرنسي وليم مارسيه كان أول من نحت الاصطلاح بالفرنسية La diglossie في دراسة عام ١٩٣٠ له حول الازدواجية في اللغة العربية إذ يقول: "إن الازدواجية تتمثل في التنافس بين لغة أدبية مكتوبة ولغة عامية شائعة تستخدم في الحوار والتواصل الشفوي" (Marçais , ١٩٣٠).

ويعود إلى الأمريكي تشارلز فرغيسون Charles Ferguson فضل البحث المعمق في مجال الازدواجية اللغوية، وقد أكد على وجود هذه الظاهرة في مختلف اللغات الحيّة. فالإنكليزية في بريطانيا، مثلاً، لها لهجات متعددة في ويلز واستكلندة وإيرلندة الشمالية وحتى لهجة الكوكني في لندن، إضافة إلى لهجات الإنكليزية خارج بريطانيا كاللهجة الكندية والأمريكية والأسترالية والنيوزلندية والجنوب أفريقية إلخ. وكذلك الحال بالنسبة للغات الفرنسية والألمانية والإسبانية وغيرها" (القاسمي، ٢٠٠٧) .

ومن أبرز الدراسات التي قدمها فرغيسون تلك التي أجراها في عام ١٩٥٩ حول الازدواجية اللغوية في أربع لغات: العربية واليونانية والألمانية السويسرية واللغة المهجنة في هايتي. وفي هذه الدراسة قدم تعريفه المشهور لظاهرة الازدواجية اللغوية فعرفها بأنها :"حالة لغوية ثابتة نسبيا، يوجد فيها فضلا عن اللهجات الساسية نمط آخر مختلف عالي التصنيف (وفي غالب الأحيان أكثر تعقيدا من الناحية النحوية) فوقي

المكانة، وهو آلة لكمية كبيرة ومحترمة من الأدب المكتوب لعصور خلت، أو لجماعة سالفة. ويتعلم الناس هذا النمط بطرق التعليم الرسمية، ويستعمل لمعظم الأغراض الكتابية والمحادثات الرسمية، لكنه لا يستعمل من قبل أي قطاع من قطاعات الجماعة المحلية للمخاطبة أو المحادثة العادية "(الزغلول، ٢٠٠٠، ٤٨). وقد أطلق فيرغسونعلى النمط (المرتفع) الفصحى، وقارن استعماله بالمنخفض وفق الجدول التالي (الزغلول، ٢٠٠٠، ٤٩):

الحالة	عال	منخفض
١. الوعظ في المسجد (أو الكنيسة)	x	
٢. التعليمات للخدم والعمال والكتبة		x
٣. الرسائل الشخصية	x	
٤. الخطبة في مجلس الأمة، الحديث السياسي	x	
٥. محاضرات الجامعة	x	
٦. الحديث مع الأصدقاء والزملاء وأفراد العائلة		x
٧. إذاعة الأخبار	x	
٨. التمثيليات الاجتماعية في الإذاعة		x
٩. افتتاحية الصحف، أخبار الصحف والعناوين	x	
١٠. التعليق على الكاريكاتير		x
١١. الشعر	x	
١٢. الأدب الشعبي		x

وفي هذا السياق يميز بازيل برنشتاين في دراساته وأبحاثه المعمقة بين نمطين لغوين في إطار الثقافة العامة هما: اللغة الرسمية، وهي لغة رمزية مكتوبة، تتصف

بدرجة عليا من التسلسل المنطقي والتكامل الرمزي المجرد، وتوظف في إطار المؤسسات الرسمية والتربوية. ويطلق على النمط الأخر اللغة العامية (المحكية أو اللغة الدارجة)، وهي لغة الاتصال في الحياة العامة وتتميز بالسهولة والبساطة كما تتميز بدرجة أدنى من التسلسل المنطقي والتجريد الرمزي. وتشتمل اللغة العامية على منظومة من اللهجات المختلفة، فلكل فئة اجتماعية أو وسط اجتماعي لهجته الخاصة وطرقه الخاصة في التعبير والتواصل. إذ يمكن لنا أن نميز في إطار الحياة الاجتماعية لغة الفلاحين ولغة العمال ولغة الفئات المختلفة (Brenstien, ١٩٧٥).

ولا يعني برنشتاين بالتعدد اللغوي وجود لغات متباينة من حيث الجوهر، بل يعني وجود أنماط خاصة من التعبير، تتباين في مستوى رمزيتها وفي مستوى تسلسلها المنطقي وفي غزارة المفردات وأنماط الدلالة. وما يدعونا إلى تبني هذه النظرة المجهرية هو ى الضرورة المنهجية في تحليل الكل إلى أجزائه الصغيرة لمعرفة قانونية العلاقة بين هذه الجزيئات المصغرة. وهو انطلاقا من ذلك عمل على معرفة التأثير الذي يمارسه الوسط الثقافي في التحصيل المدرسي انطلاقا من مبدأ تحليل اللغة بوصفها إحدى السمات الثقافية المهمة في بنية اللغة، والتي تمارس تأثيرا جوهريا على عملية التحصيل المدرسي عند الأطفال((Brenstien, ١٩٧٥.

ويقدم برنشتاين في أبحاثه عن اللغة والطبقة تصورا علميا دقيقا مقارنا بين الفصحى والعامية، وهو في السياق يرى أن الفصحى تمثل الشكل اللغوي الأكثر تطورا في بنيتها المنطقية، وفيما تنطوي عليه من دلالات فنية وجمالية، وهي الشكل اللغوي الذي يواكب حركة التطور الفكري والعلمي ويشكل إطاره الرمزي. ويتميز هذا الشكل اللغوي عن غيره وفقا لرؤية برنشتاين السوسيولوجية بالسمات الآتية(١٠٧٥):

١- تأخذ الكلمات والعبارات مكانها في سياق قواعدي دقيق .

٢- تعتمد على درجة عالية من التسلسل المنطقي والعلاقات المنطقية التي تقوم بين الأشياء وبين الزمان والمكان .

٣- تميل إلى استخدام الضمائر غير الشخصية مثل: هو، هي، هم .

٤- غنية بالظروف والصفات وحروف الجر ذات الدلالة المنطقية .

وهذا يعني أن الفصحى، أو اللغة الرسمية كما يطلق عليها برنشتاين، تشكل نظاما منطقيا متكاملا يمكن الإنسان من التفكير الرمزي المجرد (Gras, ١٩٧٤،٧٣).

للوجود الإنساني والحضارة البشرية، إذ لا يمكن لأمة أن تكون من غير لغة، ولا لحضارة أن تقوم وتزدهر في قطيعة مع اللغة التي تشكل خصوصية الإنسان عبر التاريخ. وباختصار ترمز اللغة - بوصفها ماهية إنسانية مثقلة بالمعاني- إلى الوجود البشري في أرقى تجلياته، وأعظم إبداعاته، إذ هي صيرورة وعي دائم التشكل والتجدد والتغاير تتجلى في صورة إبداع لخطاب متدفق بالدلالات والألفاظ والمعاني.

٦- سوسيولوجيا الازدواجية اللغوية:

ينظر علماء اجتماع اللغة إلى اللغة بوصفها ظاهرة إنسانية رمزية متغيرة خاضعة لقوانين التطور. ويميزون في داخل اللغة الواحدة بين نمطين لغويين في بنية اللغة الواحدة، فيجري الحديث عن لغة عامية منطوقة، ولغة رسمية مكتوبة. وفي دائرة التمييز بين اللغة المنطوقة المكتوبة واللغة المكتوبة، يلاحظ الباحثون أن المكتوبة تكون غالبا ثابتة راسخة بقواعدها وأصولها وهي بطيئة التغير، ولكن اللغة المنطوقة سريعة التغير وهي أكثر انتشارا واستخداما من المكتوبة. ومن الطبيعي في هذا التمييز أن تكون اللغة المنطوقة لغة الحياة اليومية، أما اللغة المكتوبة فهي اللغة الرسمية التي تستخدم في أرقى مستويات التفاعل الثقافي والأدبي.

ويجب في هذا السياق التمييز بين الثنائية اللغوية والازدواجية، فالثنائية ترجمة للمصطلح الإنكليزي Bilingualism، وهي تعني وجود لغتين مختلفتين عند فرد ما أو في مجتمع ما في آن واحد، إحداهما اللغة القومية والأخرى لغة أجنبية دخيلة وافدة، كالعربية والإنجليزية. أما الازدواجية اللغوية فترجمة للمصطلح الإنكليزي Diglossie، ويعني وجود لغتين مختلفتين عند فرد ما، أو في مجتمع ما، إحداهما أصل (اللغة الأم) والثانية فرع اللهجة المحلية" (محمود، ٢٠٠٩).

وتعني الازدواجية اللغوية من حيث المبدأ وجود شعبتين للغة الواحدة: يطلق على الأولى اللغة الفصيحة أو الفصحى أو اللغة الرسمية المشتركة التي تُستخدَم في المناسبات الرسمية والكتابة والأدب والتعليم والإدارة، ويطلق على الثانية اللغة العامية، وهي تشير إلى اللهجات الدارجة التي يعتمدها الناس العاديون في حياتهم اليومية. وجاء في الموسوعة اللغوية أن المقصود بالازدواجية اللغوية (Diglossia): "وجود ضربين من الاستعمال اللغوي عند جماعة لغوية واحدة، أحدهما فصيح والآخر عامي، ويختص كل منهما بوظيفة اجتماعية لا يؤديها الآخر.(كولينج،٢٠٠٠، ١٠٠٤).

وعلى خلاف ذلك تتسم اللغة المحكية (العامية) كما يرى برنشتاين بالسمات الآتية:

١- تكون عباراتها قصيرة وهي غالبا عبارات غير كاملة تفتقر إلى البنية القواعدية وتتميز بضعف البنية العامة.

٢- تميل هذه اللغة إلى توظيف التعبيرات الحسية المجسدة كالإشارات والإيماءات.

٣- استخدام محدود للصفات والظروف .

٤- تنطوي على تكرار استخدام أدوات الربط الطفيلية مثل: فإن، لأن، وبالتالي، وهكذا

٥- استخدام محدود الضمائر غير الشخصية مثل: هو، هي، هم .

٦- تنطوي على تأكيدات تأخذ صيغة الأسئلة الغامضة مثل: تصور ذلك، هذا طبيعي أليس كذلك .

٧- هناك خلط كبير بين الأسباب والنتائج .

٨- مستوى الاستخدام الرمزي يتميز بالغموض والعمومية .

وفي إطار المقارنة بين النموذجين اللغويين يمكن أن نبرز ما يأتي:

١- اللغة الرسمية لغة تعتمد التسلسل المنطقي والنحوي على خلاف اللغات المحكية .

٢- تميل اللغة الرسمية إلى الرمزية في حين يمثل اللغة المحكية إلى الحسية كالإيماءات والإشارات الجسدية .

٣- بينما تتجه اللغة الرسمية إلى استخدام الضمائر غير الشخصية مثل: هو، هي، هم تنزع اللغة المحكية إلى التركيز على الأنوية؛ أي استخدام اللغة الشخصية مثل أنا ونحن. وهذا يعني ابتعاد اللغة المحكية عن مبدأ الموضوعية.

٤- تتجه اللغة الرسمية إلى الموضوع في حين تنزع اللغة المحكية إلى النهوض في تراكيبها ودلالاتها الرمزية .

٧- الازدواجية في اللغة العربية:

تعدّ ازدواجية اللغة العربية من أهم المشكلات التي تواجه فقهاء اللغة وعلماء البيان. ولا تختلف دلالة الازدواجية في العربية عن غيرها من اللغات من حيث المبدأ الذي يعتمد التقسيم العام بين لغة الكتابة ولغة المحادثة. فالازدواجية في اللغة العربية تعني " وجود العربية العامية (المنطوقة أساسا) إلى جانب العربية الفصيحة (المكتوبة أساساً) التي هي اللغة القومية والدينية والحضارية للأمة" (عبيد وسويسي، ١٩٩٥، ١٢٣).

ويرى بعض المفكرين أن وجود الازدواجية اللغوية أمر طبيعي وضروري في كل اللغات. ووفقا لهذا التصور فإن لكل لغة رسمية فصحى لغة عامية تسير معها كظلها ولا ضرر أو ضرار بين الشيء وظله أو بين الروح وجسدها، فكل لغة فصحى مكتوبة ترافقها لغة محكية شعبية عامة غير مكتوبة تضافرها وتناظرها في دورة من التفاعل اللغوي الضروري للحياة الاجتماعية والفكرية.

ويؤكد العقاد في هذا السياق أهمية التجاور والتضافر بين العامية والفصحى فيقول:" في كل أمة لغة كتابة ولغة حديث، وفي كل أمة لهجة تهذيب ولهجة ابتذال، وفي كل أمة كلام له قواعد وأصول، وكلام لا قواعد له ولا أصول. وسيظل الحال على هذا ما بقيت لغة، وما بقي ناس يتمايزون في المدارك والأذواق. فلن يأتي اليوم الذي يكتب فيه فردوس "ملتون" بلغة العامل الإنكليزي، وفلسفة "كانت" بلغة الزارع الألماني، ولن يأتي اليوم الذي تستوعب فيه قوالب السوق كل ما يخطر على قرائح العبقريين، ويختلج في ضمائر النفوس، ويتردد في نوابغ الأذهان: فالفصيحة باقية والعامية باقية مدى الزمان!" (الزغلول، ٢٠٠٠، ٨٣).

فاللهجات العامية كانت موجودة في الجاهلية والإسلام من قبل، ثم جاء الإسلام فوحدها في البيان القرآني. وكانت هذه اللهجات حاضرة بقوة حتى في أزهى عصور اللغة العربية، ولم تشكل خطرا حقيقيا على الفصحى التي أخذت مكانتها العالية في مختلف ميادين الفكر والمعرفة المتقدمة. ويعبر الضبيب عن هذا الحضور للهجات العربية العامية إلى جانب الفصحى بقوله:" إن اللغة العامية كانت موجودة منذ العصور التاريخية القديمة، في صورة لهجات يستعملها العامة في بيئات مختلفة، وهم يعرفون أنهم باستعمالهم إياها لا يبلغون المستوى الرفيع الذي يبلغونه بالفصحى. ولذلك كانت العامية محصورة في بيئات التخاطب الضيقة التي كانت بيئات منعزلة. لم تكن العامية

ترقى لتكون لغة الأدب أو الثقافة أو الدواوين الرسمية، ولم تكن الدروس تلقى بها في حلقات العلم، ولذلك لم يكن لها خطر على الفصحى في تلك الأيام (مجلة المعرفة، ٢٠٠٩).

وفي هذا المقام يؤكد عدد كبير من الباحثين اللغويين أن الازدواجية اللغوية ظاهرة طبيعية في اللغة، فيرى محمد حسين أنها ليست حالة طارئة على اللغة العربية، وأنه لا يضير اللغة العربية الفصحى كثيرًا قيام لهجات محلية أو لغة خطاب يومي دارجة، يتداولها العامة، وتقضى بها شؤون الحياة اليومية، وأن هذه الظاهرة ظاهرة بشرية طبيعية تشمل كل اللغات: قديمها وحديثها، فلها جميعًا لغة متأنقة دقيقة للفكر وللأدب، ولها لغة أخرى أقل دقة وجمالا، وأدنى درجة و وقارًا، للتعامل اليومي، وهي لغة متحولة متغيرة، لم تحظ بعناية العلماء والأدباء إلا في أيامنا هذه، التي كثر فيها التهريج في التمسح باسم الشعب، والتشدق بالفنون الشعبية (حسين، ١٩٨١، ٢١٤).

وتبين الحياة الثقافية في العالم العربي أن الازدواجية اللغوية تفرض نفسها بقوة في مختلف مناحي الحياة الاجتماعية، وضمن هذا الوجود " ما زالت الفصحى تستخدم في مختلف مظاهر الحياة الأدبية والعلمية والرسمية، كما هو الحال في الإدارة والقضاء والتعليم الخطاب السياسي والديني والثقافي؛ فيما تستعمل العامية، أو بالأحرى العاميات واللهجات، في مختلف تجليات الحياة الاجتماعية للحياة اليومية العادية (بسلاو، ٢٠٠٠، ١٨٦).

وهكذا نجد أن الفصحى تفرض حضورها الفعلي والرسمي في مختلف أوجه الحياة الثقافية في مجال الآداب والفنون والتعليم والعلوم والإعلام، وفي المقابل نجد العامية تحتكر مجال الحياة اليومية وامتداداتها المباشرة وتنافس الفصحى منافسة تتباين قوتها من مجال إلى آخر. ولا يعني هذا بحال من الأحوال أن العامية أحرزت قصب السبق وصارت اللغة السائدة. فالحقيقة أن الأيديولوجية السائدة لا تزال تحكم على العامية بوضع اللغة المضطهدة، وضع لغة من الدرجة الثانية، تتسلل من النافذة ولا تدخل من الباب (كلفت، ٢٠١٢).

وتتميز الازدواجية اللغوية في اللغة العربية بالعمق والشمول، إذ تأخذ طابعا انفصاميا يهدد اللغة في كليتها ، وفي هذا الأمر يقول أحد الكتاب واصفا عمق هذا الانفصام بين جناحي اللغة: " يصدمنا واقع وعمق الازدواجية اللغوية العربية على كل مستوى وفي كل مكان. وتتمثل هذه الظاهرة في هذا الوجود المتجاور أو المتزامن أو

المتداخل أو المزدوج أو المنشطر بين اللغة المسماة بالعربية الفصحى واللغة أو اللغات المسماة بالعامية أو العاميات العربية" (كلفت، ٢٠١٢).

والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو: إذا كانت ظاهرة الازدواجية اللغوية ظاهرة طبيعية في جميع لغات العالم فلماذا تأخذ هذه الظاهرة طابعا مرضيا في اللغة العربية؟ وهذا هو السؤال عينه الذي يطرحه محمد راجي الزغلول إذ يقول: " إذا كان وضع الازدواجية طبيعيا في معظم لغات العالم، فلماذا يكون هذا الوضع إشكاليا أو عائقا للتقدم في البلدان العربية؟ " وعلى الأثر يقدم الزغلول تصوره حول هذه المسألة فيقول: "باعتقادي أن ذلك يعود لسببين رئيسيين: أولهما ازدياد الفجوة بين العامية والفصحى واللهجات نتيجة لعوامل تاريخية حتى أصبحتا وكأنهما لغتان مختلفتان في أعين الكثير من الباحثين. وثانيهما أنه رغم استقلال الدول العربية وتبني اللغة العربية رسميا وشعبيا، فإن الاعتماد على اللغات الأجنبية ما زال واسعا وممتدا. "(الزغلول، ٢٠٠٠، ٧٨). ويتابع الزغلول في تحليل العلاقة بين العامية والفصحى فيقول: " إن من أهم مسببات اتساع الفجوة بين العامية والفصحى، بل من أهم أسباب ازدياد العامية، هو ارتفاع نسبة الأمية في مجتمع ما، والرقم في مجتمعاتنا معيب إذ يقارب إن لم يتجاوز ٧٠% في بعض الدول، وبعكس ما أشار إليه بعض المستشرقين فإن ارتفاع نسبة الأمية هو الذي زاد الفجوة اتساعا بين العامية والفصحى. "(الزغلول، ٢٠٠٠، ٧٩). ونعتقد أن الزغلول قد أصاب بعض الحق في تحليله هذا، ويبقى علينا أن نحلل عددا كبيرا من المتغيرات والأسباب المتداخلة في هذه القضية .

وقد ترتب فعليا على وجود الازدواجية اللغوية في العالم العربي ولادة ازدواجية في الموقف الفكري من هذه الظاهرة؛ حيث انقسم الباحثون إلى فريقين: فريق يرى في الازدواجية أزمة لغوية وخطرا داهما يتحدى اللغة العربية ولاسيما الفصحى في وجودها وكيانها، وفريق آخر يرى أن هذه الازدواجية طبيعية ولها ما يماثلها في جميع لغات العالم ولا خوف منها على الإطلاق.

والحقيقة أننا لا نزال بعيدين عن التوصل إلى تصور يمكن الاطمئنان إليه فيما يتعلق بإشكاليات هذه الازدواجية. وما برح الجدل محتدما بين الباحثين العرب في طبيعة العلاقة بين مفهومي الفصحى والعامية، ولاسيما حول تأثير كل منهما في الأخرى سلبا وإيجابا. وما زال البحث في حدود هذه العلاقة يثير حماسة الباحثين للدرس والفحص والقياس والتعميم. والأسئلة التي تطرح نفسها في هذه الخصوص كثيرة

متعددة منها: هل تشكل العامية في امتدادها وتوسعها خطرا حقيقيا على الفصيحة والفصحى؟ هل يمكن تفصيح العامية وإثراء الفصحى بعاميتها؟ أم هل يمكن أن تكون العلاقة بينهما علاقة تكامل وإثراء؟ هل يمكن للعامية في المستقبل أن تحلّ مكان الفصحى وتقصيها؟ أم هل يمكن تقعيد العامية على صورة الفصحى وتبنيها لغة وطنية؟ وهذه الأسئلة جميعها تطرح إشكاليات في تضاريس مختلفة للعلاقة بين الفصحى والعامية. والمهم في هذا كله أن الباحثين ما زالوا في طور دراسة هذه القضية المعقدة الشائكة يدفعه طموح كبير إلى إيجاد الحدود الفاصلة بين المفهومين وتحديد طبيعة العلاقة بينهما على نحو موضوعي.

٧-١- في مفهوم الفصحى:

الفصاحة عند العرب هي "البيان" كما جاء في لسان العرب. وهي اللفظ الفصيح أي "ما يدرك حسنه بالسمع". والإنسان الفصيح هو الذي "يحسن البيان ويميّز جيد الكلام من رديئه". وفصح الرجل؛ "انطلق لسانه بكلام صحيح واضح "، والفصيح: من يحسن الكلام ويميز جيده من رديئه ". والفصيح في كلام العامة المُعْرِبُ (لسان العرب). وجاء في تاج العروس: الفَصيح: المنطلق اللِّسَان في القول الذي يعرفُ جيِّدَ الكلام من رديئه. وقد أفصحَ إذا تكلَّم بالفَصاحة. وجاء في المعجم الوسيط: فصح الرجلُ: انطلق لسانه بكلام صحيح واضح.(الفَصَاحَة): البيان. و سلامة الألفاظ من الإبهام وسوء التأليف. يقال: رجل فصيح: يحسن البيان ويميّز جيّد الكلام من رديئه. وكلام فصيح: سليم واضح يدرك السمع حسنه والعقل دقّته. ولسان فصيح: طلق يعين صاحبه على إجادة التعبير. ويجمل القول في الفصحى كما يقول الدجاني "أنها تحرص على صحة اللفظ ووضوحه" (الدجاني، ٢٠٠٠، ١٦). ومقياس الصواب في الفصحى يكون في المحافظة على سلامة اللغة العربية ومراعاة التطور الذي تخضع له (الدجاني، ٢٠٠٠، ١٦).

ويمكن القول في هذا السياق: إن العربية الفصحى توازن ما يسميه الغربيون Classical Arabic أو العربية الفصحى Fusha Arabic، أو العربية الأدبية Literary Arabic وما يرمز له فيرغسون بالنمط العالي أو المرتفع ورمز له بالحرف (H) (الزغلول، ٢٠٠٠، ٥٦).

وغالبا ما يقصد بالفصحى اللغة العربية التي تستخدم في الكتابة والتأليف والترجمة، وهي ذات اللغة التي حافظت على قواعد اللغة العربية وما تنطوي عليه من أصالة، وهي لغة الشعر العربي القديم، ولغة القرآن الكريم، وهي اللغة التي يتكلمها العلماء

والمفكرون والمثقفون في عالمنا العربي. ويمكن القول في هذا الخصوص إن اللغة العربية الفصحى هي لغة الفكر والأدب والعلم، وهي اللغة ذاتها التي تعتمدها الدول العربية لغة رسمية في مختلف مؤسسات الدولة ودوائرها بوصفها اللغة الوطنية القومية. (الأنصاري، ٢٠٠٨، ١١٤). ويحدد محمد حسن عبد العزيز سمات الفصحى فيقول إنها "مكتوبة، تستخدم في التعليم، وفي العلم، وفي الأدب، وفي الصحافة، وهي اللغة الرسمية المشتركة في العالم العربي اليوم"(عبد العزيز، ١٩٩٢، ١١).

ومن حيث الخصائص والسمات اللسانية فإن الفصحى تتميز بصحة ألفاظها، ودقة معانيها، ووضوح مبانيها، في حين تعاني العامية من تحريف اللفظ، وغموض الكلمات، وإبهام المعاني، والخروج عن المألوف في قواعد الفصحى. وقد عني علماء اللغة بالحديث عن "مقياس الصواب اللغوي" الذي تلتزم به الفصحى. ويرى كثير منهم أن الفصاحة تقوم على دعامتين: المحافظة على سلامة اللغة العربية من جهة، ومراعاة التطور الذي تخضع له من جهة ثانية. والفصحى في جوهرها أن يجري الكلام على المقاييس الجمالية والنحوية للغة العربية القديمة في أكثر تجلياتها الأدبية وأدق معانيها الفكرية وهي اللغة التي تحاكي القرآن الكريم بوصفه أعلى مراتب الفصاحة وأكثرها جمالا وبيانا واكتمالا.

و"الفصحى" كما يقول خليل كلفت " واحدة مشتركة في العالم العربي كله، من المحيط إلى الخليج، كما يقال، رغم السمات الخصوصية الأقل جوهرية هنا وهناك. أما "العامية" أو "العاميات" العربية فتتباين تباين الأقطار العربية (العراق، المغرب، السودان...إلخ)، أو المناطق اللغوية داخل القطر العربي الواحد (لهجات مصر، على سبيل المثال)، أو المناطق اللغوية العابرة للحدود السياسية (اللهجة الشامية) (كلفت، ٢٠١٢).

٢- في مفهوم العامية:

استخدم مفهوم اللهجة (Dialect) قديما بمعنى اللغة، واللهجة هي اللغة عند علماء العربية القدماء، "فلغة تميم ولغة هزيل ولغة طيء التي جاءت في المعجمات العربية لا يريدون بها سوى ما تعنيه كلمة (اللهجة). كما أطلق على اللهجة لفظ "اللحن"، وفي هذا قال أحد الأعراب (ليس هذا لحني ولا لحن قومي)" (الضامن، ١٩٨٩، ٣٢). ويجري اليوم استخدام لفظة "اللهجة" بمعنى اللغة العامية المقابلة للفصحى. وجاء في المعجم الوسيط أن العَامِّيَّةُ: لغةُ العامة، وهي خلافُ الفُصحَى، واللّغة العاميّة: هي اللُّغة المتداولة بين النَّاس، وهي بخلاف اللُّغة الفصحى المستخدمة في الكتابة والأحاديث

الرَّسميَّة والعلميَّة. والعامي من الكلام: ما نطق به العامة على غير سنن الكلام العربي، وكذلك: "العامية: لغة العامة وهي خلاف الفصحى". وتأخذ العامية تسميات عديدة منها اللغة العامية أو المحكية أو الدارجة أو اللهجة، ويعرفها الزغلول بأنها "النمط الذي يسميه الباحثون الغربيون بالعربية الدارجة Colloquial Arabic، أو العربية المحكية Spoken Arabic، أو اللهجة Dialect، وهي التي أطلق عليها فيرغسون النمط المنخفض ورمز له بالحرف (L). وهو النمط الذي يكتسبه العربي بصورة طبيعية في مختلف أصقاع الوطن العربي. ويختلف هذا النمط باختلاف المناطق الجغرافية والجماعات البشرية المتمايزة (الزغلول، ٢٠٠٠، ٦٠). وتميل العامية إلى التبسيط ولاسيما في القواعد حيث تختفي صيغة المثنى تقريبا وينقص عدد الضمائر، وتختفي أوزان الجمع، وحركات الإعراب. وهذا يعني أن العامية العربية غير قادرة على أداء دور ثقافي في مجال المعرفة العلمية والثقافية، وعليه فإنه يجب على المتكلم أن يعود إلى الفصحى ليمزجها بتراكيب عامة إن أراد التعبير عما يقول بشكل أوفى. (الزغلول، ٢٠٠٠، ٦٣).

وتعرف الأنصاري العامية بالقول: " هي اللغة التي تستخدم في الشؤون العادية ويجري بها الحديث اليومي، لا تخضع لقوانين لأنها تلقائية متغيرة، تتغير تبعًا لتغير الأجيال، وتغير الظروف المحيطة بهم" (الأنصاري، ٢٠٠٨، ١١٤).

يرى معظم أهل اللغة أن اللهجة العامية هي لغة الشعب كله تسيل على الألسن بلا عسر ولا تصنع، وتعبر خير تعبير عن مشاعر الناس وأفكارهم وتطلعاتهم وطموحاتهم. ويحدد المجلس الأعلى للغة العربية مفهوم العامية الدارجة بأنها " مستوى تعبيري يتخاطب به العامة عفويا في الحياة اليومية، وهو مستوى غير خاضع لقواعد النحو والصرف ويتصف بالتلقائية والاختزال، إنها عربية فقدت بعض الخصائص الموجودة في الفصحى مثل الإعراب" (المجلس الأعلى للغة العربية، ٢٠٠٨، ٥).

بين مفهومي العامية والفصحى:

شغل الباحثون بتحديد العلاقة القائمة بين العامية والفصحى، واهتموا بتحديد خصائص وسمات كل منهما، كما اهتموا بتحديد الدور والوظيفة التي يجب أن يقوم بها كل منهما في مضمار التكامل بينهما. وفي هذا المضمار يقدم لنا الباحث سليمان العايد تصورا واضحا عن أوجه التشابه والاختلاف بين العامية والفصحى في محاضرة له عن علاقة اللغة المنطوقة باللغة المكتوبة في اللغة العربية إذ يقول: "تريد باللغة المنطوقة

اللغة هذه التي يستعملها الناس في واقع حياتهم اليومي، وفي حركتهم المعاشية المتكررة، وما اعتادوا التعبير به عن أغراض ومطالب وشؤون الحياة؛ وهذا شامل للغة حين تنطق، وللغة حين تكتب، ما دامت بهذا الوضع، وعلى تلك الحال. كما نريد باللغة المكتوبة تلك التي اكتسبت صفة الثبات، وتتابعت الأجيال على التزام كتابها، وهذه تشمل ما ينطق من اللغة إذا اتسم بالتأنق والصنعة كما يفعل الخطباء"(العايد، ١٩٩٦، ٤) . واللغة هي لغة التخاطب الحيّ، وهي "لغة ينفك مستعملها من كثير من سمات اللغة الفصحى، كالإعراب، ونظام الجملة، واستعمال أدوات الربط، ويستعيض عنها بغيرها، ولا يحرص على تجنب اللحن، ويرسلها، دون تحضير أو تزوير. وكل ما لا ينطبق عليه هذا الوصف فليس بلغة خطاب، كالشعر والخطابة، والتأليف، مما يتعمل له الشاعر والخطيب والمؤلف، ويبذل فيه شيئًا من الصنعة، انتقاء واختيارًا وإحكامًا"(العايد، ١٩٩٦، ٤). وتتميز اللغة المنطوقة بأنها لغة متحولة سريعة التغير، لا تكاد تثبت على حال، بما فيها من صواب« ، بخلاف اللغة المكتوبة التي تقف في طريق التغير الذي يلحق لغة الكلام قد ضبطته معيارية دقيقة، تقف في وجه التغير السريع الذي هو طبيعة اللغة المنطوقة، ولها فائدة في تحسين وسائل الاتصال وصبغ اللغة المنطوقة بصبغة أدبية مشتركة(العايد، ١٩٩٦، ٤).

وفي ضوء هذا التحديد لمصطلحي الفصحى والعامية، يمكن أن نلاحظ أن أهم الفوارق بينهما، هو تحريف النطق ببعض حروف اللغة، وتغييره كليًا في بعض الأحيان، وإهمال إعراب أواخر الكلمات، وتغيير حركات حروف الكلمة في العامية. وهذه الفوارق تؤدي إلى فارق آخر مهم، هو أن الفصحى العربية تأخذ صورة واحدة لا تغاير فيها من حيث الجوهر، في حين تتعدد العاميات العربية بتعدد أنحاء الوطن الكبير واختلاف اللهجات. وواضح أن هذه الفوارق تضع الفصحى في مكانة متميزة، وتجعلها "الأنموذج " للسان الراقي الحريص على النطق الصحيح للحروف، وعلى الإعراب، وعلى سلامة الكلمة. ولافت أن العامية في بلد ما تتفاوت في درجة قربها من الفصحى بين حي وآخر. ولافت أيضًا أن هناك تشابهًا بين العاميات المختلفة في بلاد العرب في جوانب تحولها عن الفصحى صوتيًا وصرفًا ونحوًا، وإن ذهب كل منها مذهبه.

ويمكن لنا في هذا السياق التمييز بين اللغة العربية الفصحى وبين العربية العامية في التقاطعات الآتية:

١- تتميز اللغة العامية بوصفها لغة شفوية يتحدث بها الناس دون أن يكتبوها في حين تتميز اللغة الفصيحة بأنها لغة الكتابة والتدوين. والعامية لا تستخدم عادة في

التوثيق والتدوين والكتابة الأدبية أو العلمية فهي لغة مشافهة وليست لغة كتابة كما هي حال الفصحى .

٢- تأخذ العامية أهميتها بوصفها لغة الحياة اليومية والتواصل الاجتماعي في أشمل معانيه، أما الفصحى فهي اللغة الرسمية التي يجري تداولها في الإدارة والإعلام والأدب والسياسة والتعليم والكتابة والمحافل الدولية.

٣- تعتمد اللغة العامية على السجية والانسيابية وعلى العادات اللغوية المألوفة ولا تخضع لمنطق القواعد اللغوية كما هي حال الفصحى التي تعتمد على منظومة من القواعد والمبادئ التي يجب مراعاتها أثناء الكتابة والحوار.

٤- تراعي الفصحى متطلبات البيان اللغوي في أرفع مستوياته ضمن نطاق الصرف والنحو والألفاظ الدلالية المتقنة، وعلى خلاف ذلك تعتمد العامية الاقتصاد اللغوي واليسر اللفظي التعبيري دون اهتمام بمقتضيات الدقة اللغوية والبيان اللغوي المتطور.

٥- تتنوع العامية بتنوع الجغرافية والطبقات والفئات الاجتماعية والمجموعات السكانية في حين تأخذ الفصحى طابع لغة وطنية شاملة على وحدتها على الرغم من التنوعات الاجتماعية والتباينات الاجتماعية.

٦- يتضح تأثير العامية وحضورها الواسع في لغة الطبقات الاجتماعية الواسعة في حين يقتصر تأثير الفصحى في النخب الثقافية والاجتماعية ولدى أبناء المتعلمين من الطبقة الوسطى .

٧- تتباين العامية بتباين اللهجات المحلية في البلد الواحد مثل: اللهجة المصرية، اللهجة اللبنانية، السورية في حين تتميز الفصحى بوحدتها وتجانسها وشمولها بوصفها لغة وطنية واحدة في مختلف جوانب الحياة الثقافية والسياسية والعلمية والأدبية .

٨- تتصف العامية بفقرها العلمي حيث لا نجد في بنيتها مفردات علمية تتعلق بالعلوم والفنون والآداب. وذلك على خلاف العامية التي تتميز بثرائها العلمي وغناها الكبير بمفردات العلم وألفاظه ومعانيه.

٩- تختلف العامية في البلد الواحد باختلاف طبقات الناس وتنوعهم الاجتماعي ولهجاتهم: لهجة الفلاحين، ولهجة العمال، ولهجة الطبقة البرجوازية. وهذا التباين الاجتماعي ليس له حضور في اللغة العربية الفصحى .

وتجدر في هذا السياق الإشارة إلى هذه المناظرة التي يجريها كلفت ما بين فصاحة العامية وفصاحة الفصحى إذ يقول: " "الفصحى" هي لغة الفصاحة، والفصاحة هي الوضوح والسلامة من اللحن. وقد تبدو اللغة المسماة بالعامية واضحة، محليا على الأقل، لكنها تبدو على كل حال بعيدة عن السلامة من اللحن بمعايير "الفصحى". ولكنْ كما أن الوضوح يتحقق بوسائل "العامية" وليس بوسائل "الفصحى"، فمن الواجب أن يُنظر إلى السلامة من اللحن (أيْ السلامة من الخروج على المعايير النموذجية أو من الانحراف عنها) لكل لغة من اللغتين على أساس معاييرها الخاصة وليس على أساس معايير اللغة الأخرى "فالفصحى" سليمة بمعاييرها الخاصة و"العامية" سليمة بدورها بمعاييرها الخاصة "(كلفت، ٢٠١٢).

وهذا التناظر الذي يجريه كلفت يتضمن رؤية موضوعية غير مألوفة في مجال المقارنة بين العامية والفصحى. فأهل العامية يجدون العامية أكثر وضوحا من الفصحى وقد يعبرون بها بشكل أفضل. وغالبا ما يعتمد المدرسون في الجامعة اللهجة العامية لتفسير ما لا يستطيع الطلاب فهمه بالفصحى. وفي كل الأحوال يجب أن يؤخذ هذا الرأي المقارن على محمل الجد العلمي وألا يستهان بقيمته السوسيولوجية.

ويتابع كلفت تحليله للفصاحة ما بين الفصحى والعامية قائلا: " وإذا كانت فكرة الفصاحة، بشقّيها، تنطلق من جعل "الفصحى" المعيار الأوحد والمطلق أو المثل الأعلى بلا منازع للغة العربية، فإن الانطلاق من "العامية" أو من الحياد الوصفي إزاء الازدواج اللغوي القائم لا يمكن إلا أن يؤدي إلى أن تطالب "العامية" بالاعتراف بفصاحتها، أيْ بوضوحها وسلامتها، وربما على قدم المساواة مع "الفصحى" وربما أكثر منها بكثير، على أساس أن تمكّن العرب من "العامية" أقوى بما لا يقاس من تمكّنهم من "الفصحى" (وربما من تمكّن خاصتهم من "الفصحى"). "فالعامية" بدورها فصحى أو حتى أكثر فصاحة (بما لا يقاس) بمعاييرها الخاصة. (كلفت، ٢٠١٢). ويعني ما سبق بطبيعة الحال أن الفصاحة سمة طبيعية لكل لغة بحكم بداهة كونها لغة، وهي تزدهر بازدهار لغة وتنحط بانحطاطها وتموت بموتها وتنتقل من خلال التطور اللغوي البطي أو العاصف إلى لغة جديدة تحل محل القديمة (كلفت، ٢٠١٢).

وباختصار: "الفصاحة لا تحتكرها "الفصحى" ولا "العامية" وبالتالي لا تمتلكها "الفصحى" ولا "العامية" بصورة مكتملة، لأن "العامية" ليست لغة مكتملة الحلقات، كما أن "الفصحى" ليست لغة مكتملة الحلقات. ذلك أن "الفصحى" عاجزة، منذ قرون وقرون، عن الاستمرار كلغة كلام وحياة يومية. وهي بذلك لغة ناقصة. كما أن هذا النقص، هذا الانفصال عن الحياة اليومية، يُفقرها ويحرمها من حيوية الحياة ويجرّدها من القدرة على التعبير عنها بالحيوية المطلوبة، أضف إلى ذلك أن "العامية" تنافسها منافسة شاملة متفاوتة القوة في كافة مجالات الثقافة والتعليم والإعلام" (كلفت، ٢٠١٢).

٧-١-١- أيديولوجيا الصراع بين الفصحى والعامية:

يحتدم الصراع الأيديولوجي بين أنصار الفصحى والعامية يوما بعد يوم، ويأخذ هذا الصراع مداه تحت مظلة الهجوم الذي غالبا ما يتجاوز حدود الطابع العقلاني للصراع الأيديولوجي. ويأخذ هذا الخلاف الأيديولوجي طابع الصراع الفكري المتوتر بين المقدس والوضعي. فأصحاب الفقه اللغوي ذوو التوجهات الإسلامية ينظرون إلى الفصحى بوصفها لغة دينية مقدسة اختارها الله لمخاطبة البشر، ويرون أنن هذه اللغة بلغت كمالها المقدس في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي، و ينبني على ذلك أن أي محاولة لتطوير اللغة والتغيير فيها يعدّ بمثابة التطاول على المقدس اللغوي. ومن هذه الزاوية يهاجم أصحاب هذا التيار العامية ويرون فيها تهديدا للمقدس اللغوي؛ فاللغة العربية لأصحاب هذا التيار ليست مجرد لغة عادية بل هي لغة كونية قدسية إدراكية من حيث المضامين ومن حيث التجليات الإنسانية.

ويتضافر رأي هؤلاء المتشددون أصحاب المقدس مع تيار من الفقهاء القوميين الذين يضفون على اللغة العربية طابعا قدسيا من منظور الهوية القومية، فاللغة الفصحى كما ينظرون إلها تشكل عمق الهوية والوجود، وأي تغيير أو تعديل يمكن أن يشكل خطرا على هذه الهوية. ومن هذا المنطلق يرون بضرورة المحافظة على الفصحى بوصفها اللغة التي تمكن ناطقيها من اكتناه العالم والتعبير عن ماهية وجودهم.

وعلى خلاف هذه الرؤية يرى فريق من الباحثين الوضعيين أن اللغة العربية لغة وضعية تخضع لقوانين التطور والتجديد، وهم يعبرون عن شكوكهم في مصداقية الطابع الكوني للغة العربية. وعلى الرغم من اعترافهم يعترفون بأهمية العربية وتقديرهم لعلاقاتها السامية بالدين الإسلامي، فإنه يصعب عليهم الاعتقاد بالأهمية المطلقة التي تنسب إليها.

ويوجد فريق اغترابي أو حداثي آخر يرى أن اللغة العربية بأصولها الدينية أصبحت لغة جامدة تعاند التطور وتناهض التغير وتقف في وجه الإبداع العلمي والفكري في مختلف أوجه الحياة والعمل. وهم من هذا المنطلق يرسلون الدعوة إلى تبني اللغة العامية ورفض اللغة الفصحى على نحو كلي لأنها غير صالحة للعصر بما يتطلبه من نهوض حضاري شامل.

ومما لا شك فيه أن الساحة تشهد تيارات معتدلة ترى إمكانية تطوير العامية والفصحى في اتجاه حضاري جديد يمكنهما من تطوير الحالة الحضارية للأمة العربية وتفجير الطاقة الإبداعية للشعوب العربية، فالفصحى يجب أن تخرج من دائرة جمودها وتحجرها، والعامية يجب أن تنطلق من أجل تقليص المسافة البنيوية بينها وبين الفصحى. ويرى أصحاب هذا التيار أن تطوير الفصحى والعامية باتجاه التفاعل والتخاصب يشكل منطلقا للنهوض الفكري والإبداعي في العالم العربي. ويبدو أن أصحاب التيار المعتدل أقل أهمية وشأنا في عملية الصراع الذي يحتدم بين المتشددين الداعين إلى إلغاء العامية وأولئك الداعين إلى رفض الفصحى بقضها وقضيضها.

ومن البداهة بمكان أن هذا الصراع المحتدم بين أنصار العامية وأنصار الفصحى يفعل فعله في إبقاء حالة الجمود في اللغة العربية بصورة عامة. فلا الفصحى تشهد تغيرا ولا العامية تلقى قبولا، وتبقى الوضعية أشبه بحالة انفصامية انشطارية تمنع أي تطور أو تقدم في مسألة اللغة العربية التي تشهد حالة من التردي والانحدار في مختلف مستويات الوجود والتفاعل الفكري والثقافي.

وشكل هذا الجمود الحضاري الأيديولوجي للغة العربية موضوعا جديدا للمفكرين والباحثين بحثا عن مخرج حضاري يضع اللغة العربية في مسارها الحضاري الصحيح. وفي هذا السياق يصف العجمي حالة الانغلاق الحضاري الناجم عن جمود اللغة العربية وانغلاقها، فيرجع هذا الخلل إلى الانغلاق اللساني في مرحلة تاريخية محددة من دون السماح للغة بالخروج منها وتوسيع آلياتها للقيام بوظائفها المتجددة. وتأسيسا على هذا الانغلاق " تحول مستخدمو هذه اللغة إلى فريقين: فريق تكونت لديه القناعة بأن لغته الرسمية دخلت أرشيف التاريخ، فهي ليست في حالة وهن أو مرض – بل في حالة ميؤوس منها، وليست لغة قابلة للحياة، ولذا فإن الاهتمام بها يعد تخلفا وتعلقا بأشياء ليست من العصر، ولا تفيد في شيء من السمعة الحسنة لدى المجتمع،

ولا الفائدة المرجوة في عمل أو معاش. وفريق آخر وضع اللغة العربية في أقفاص الجمود لتكون منيعة على كل محاولات التجديد والتغيير" (العجمي،٢٠٠٥، ٣٦،٣٥).

ويرى العجمي في هذا السياق أن الفريق الذي يؤمن بقدسية اللغة وممانعتها للتغير وضع شروطا تجعل من التغيير والتجديد في بنية اللغة العربية ضربا من المستحيل. وأصحاب هذا الاتجاه يضعون شروط الاستحالة الأربعة لإحداث أي تغيير أو تجديد في اللغة العربية: ١-التجميد التاريخي. ٢ التعليب وجاهزية القوالب. ٣- الإقفال وعدم السماح بالإضافة.٤- المصادقة بالختم من الجهات المخولة. فما يتصف بهذه الصفات الأربع، فهو سليم ومقبول، وما ينقصه شرط من شروط المشروعية الأربعة فهو فاسد وغير مقبول (العجمي،٣٦،٢٠٠٥).

ويرى أصحاب التوجه المتشدد أن اللغة يجب أن تبقى على حالها، وهذا يعني أنه يجب عليها أن تموت؛ لأن المصرح لهم بالختم هم من الأموات مثل: الجوهري أو ابن منظور أو الفيروز أبادي أو الزبيدي. ووفقا لهذه الرؤية فإن التراكيب لا تكون عربية إلا إذا أجازها سيبويه أو الفراء أو الزمخشري أو غيرهم من أهل الحل والربط (العجمي،٢٠٠٥، ٣٦).

وضمن هذه الرؤية يبدو واضحا أن الصراع يدخل في دائرة الانغلاق الفكري، فالفريق الأول – الذي تحدث عنه العجمي- ينظر إلى اللغة على أنها جيفة نتنة يجب تجاوزها، والثاني يرى أنها تابو مقدس يجب تقديسه والحفاظ عليه بهيئته التي تمس. فيمتلك الأول الخجل من استخدامها ويمتلك الآخر الخوف عليها ومنها في أشكالها المتطورة والمتجددة مع تجدد الحياة(العجمي،٣٦،٢٠٠٥).

وقد شكل هذا الفراق الأيديولوجي والفكري مقدمة موضوعية يستند إليها كل فريق بالتناوب في الهجوم على الفصحى تارة وعلى العامية تارة أخرى، فأصحاب النزعة الجمودية يهاجمون العامية وأصحاب النزعة الوضعية يهاجمون الفصحى . فريق يريد أن يحافظ على الفصحى في حلتها الدينية النقية وفريق يريد تغيير الفصحى باتجاه التجديد والتغيير بما يتناسب مع معطيات الحضارة والعصر .

الهجوم على الفصحى:

شكلت الفصحى هدفا كبيرا للهجوم والنقد وما زالت تواجه ذلك، وتأرجحت فعاليات هذا الهجوم بين الدعوة إلى إصلاحها والدعوة إلى نبذها وإقصائها وإحلال العامية بديلا لها. ويلاحظ في هذا السياق أن الهجمة على اللغة العربية الفصحى وإضعافها جاءت

بداية بإيعازات استشراقية غربية التوجه استعمارية الطابع. فالعربية عنوان قوة العرب وعنفوانهم في مجموعهم القومي، أو في توزعهم البشري مهما صغرت أو كبرت المجموعات البشرية التي ينتمون إليها. واللغة العربية - كما يعلم أهل الفكر والاختصاص - تشكل العمق الاستراتيجي للهوية العربية من وجهة نظر حضارية، وهي القوة الحيوية الكبرى للتعبير عن هوية العرب وانتمائهم الحضاري الإسلامي. وقد أدرك المستعمر الغربي ومن قبله التركي هذه الحقيقة، وعلموا علم اليقين أن كسر شوكة العرب والهيمنة على مقدرات وجودهم لا يكون إلا بتدمير لغتهم عنوان وحدتهم وعرين هويتهم ومعين نظرتهم الثقافية إلى الكون والوجود.

ويمكن لنا في هذا السياق أن نميز بين ثلاثة اتجاهات نحو الفصحى (ابن البراء، ٢٠٠٤):

أ- "اتجاه يرى أصحابه أن الفصحى النموذجية قادرة على الوفاء باحتياجات أبنائها في مختلف قطاعات الحياة الاجتماعية والسياسية، وذلك لما تمتاز به من حيوية ومرونة. ويطالب بالتشبث باللغة العربية لأنها الضمان الوحيد للحفاظ على الهوية .

ب- يرى أصحاب الاتجاه الثاني أن دور الفصحى يجب أن يقتصر على أمور الدين والمراسيم الاجتماعية لأنها لا تستطيع بحكم طبيعتها الجامدة أن تفي باحتياجات العصر العلمية والتكنولوجية؛ ولاسيما في مجال المصطلحات العلمية. ويبالغ أصحاب هذا الاتجاه في موقفهم ضد الفصحى إذ يرون أن استخدام الفصحى في التعليم قد يؤدي إلى قطيعة بين الطلاب وتحصيلهم العلمي الحديث ويحرمهم منإتقان اللغات الأجنبية. ويشير أصحاب هذا الاتجاه إلى عدم قدرة اللغة العربية على مواكبة التطور السريع للعلوم وللمعارف، ويرون أن العربية تجعل الوفاء بما يحتاجه الطالب والمدرس من مصطلحات أمراً غير ميسور، وهم يغمزون من طرف عدم القدرة على تعريب المصطلحات العلمية نظرا للاختلاف بين الباحثين العرب وبين الأقطار العربية في عملية تعريب المصطلحات (ابن البراء، ٢٠٠٤).

ج- يرى أصحاب الاتجاه الثالث أن العربية تحتاج إلى التطور والتنظيم والتخطيط، وهي تستطيع عندما تطور نفسها أن تلبي مختلف التطلعات العلمية وأن تفي بمختلف احتياجات العصر الحضارية والعلمية. وهذا الموقف يتضمن كثيرا من الحكمة والحصافة والموضوعية (ابن البراء، ٢٠٠٤).

وقد تركزت الهجمات على العربية الفصحى المستعملة في الجرائد والترجمات في ثلاثة محاور: الدعوة إلى العامية، ثم الدعوة إلى استبدال الحروف العربية من أجل التيسير، والدعوة إلى تيسير قواعد النحو والبلاغة والبيان.

ويجب علينا في هذا المسار أن نميز بين الدعوة إلى إصلاح اللغة العربية وتطويرها وتطوير أدائها وتفجير إمكاناتها الحضارية وبين الاتجاهات التي تتجاوز هذه الدعوة إلى إبطال اللغة العربية الفصحى وإقصائها وإحلال اللهجات المحلية أو الأجنبية مكانها. فطه حسين عميد الأدب العربي كان قد دعا إلى تطوير الفصحى وتطويع قواعدها لمعطيات العصر الجديد بمتطلباته الحضارية الجديدة. وفي هذا يقول: " من الحق أن اللغة العربية عسيرة، لأن نحوها ما زال قديما عسيرا، ولأن كتابتها ما زالت قديمة عسيرة، ولأن مناهجها ما زالت بعيدة عن ملاءمة حاجة الصبي وطاقته، ولأن معلمها لم يتهيأ بعد ليكون رفيقا بها وبالتلميذ، قادرا عليها وعلى التلميذ "(حسين، ١٩٧٣، ٢٤٧).

فطه حسين في هذا الموقف يبدو عقلانيا وموضوعيا، وهو يريد خيرا باللغة العربية كي تكون أكثر قدرة على مواكبة العصر وتفجير الطاقات العربية في مجال العطاء العلمي والفكري. وما زالت الساحة العربية تعج بعدد كبير من المفكرين والأدباء والباحثين وفقهاء اللغة الذين يريدون في حقيقة الأمر تطوير اللغة العربية دون المساس بجوهرها وقوتها وهويتها ونحوها.

لقد أدركت الدول المستعمرة أبعاد هذه القوة الحضارية الهائلة المكتنزة في العربية الفصحى، وأدركت أيضا أن السيطرة والهيمنة الثقافية والسياسية لا يمكن أن تكتمل ما بقيت اللغة العربية رابطة هوية وثقافة ودين وشعور بالقوة والإرادة، فالعربية الفصحى تشكل في جوهر الأمر الطاقة الحيوية للكينونة الحضارية العربية، فعمل على تفجير اللغة العربية الفصحى وتفكيك أواصر وجودها، وما انفك منذ بداية القرن الماضي يعمل على تفكيك الفصحى وتهديم بنيتها وعزلها عن متكلميها. ومن أجل هذه الغاية فرض المستعمر لغته فقام بفرنسة المغرب العربي وفرض اللغة الإنكليزية في المشرق العربي والإيطالية في ليبيا مقصيا اللغة العربية، ومبعدا إياها عن مختلف الميادين الثقافية والفكرية. ومن أجل إقصاء اللغة الفصحى وكسر شوكتها وتفكيك مقومات وجودها عمل المستعمر على إحياء اللهجات المحلية منطلقا من الزعم القائلإن الفصحى العربية لغة كلاسيكية قديمة ضعيفة قاصرة عن الأخذ بأسباب الحضارة، وإنها فقدت مبررات وجودها التاريخي كقوة حضارية وثقافية.

يقول الزغلول بهذا الصدد: " بعد ثورة ١٩١٩ في مصر برزت مجموعة من الكتاب يدعون لما نسميه الفرعونية المصرية، أو الإقليمية الضيقة. ولم يكن الاستعمار البريطاني مشجعا على الفكرة فحسب بل متمنيا لها. وقد علق محمد حسين على هذه الحركة بأنها حركة استعمارية انفصالية كان وراءها الإنكليز. وقد دعت هذه الحركة إلى "مصرنة أو تمصير " اللغة والفن والأدب. واستعمال العامية المصرية بدلا من الفصحى. وفي هذه الفترة دعا أحمد لطفي السيد إلى ما أسماه التسامح اللغوي وما قصده بذلك هو إصلاح الفصحى باستعمال الألفاظ العامية "(الزغلول، ٢٠٠٠، ٧٢).

واتخذ الهجوم الاستعماري على العربية الفصحى طابعا ثقافيا استشراقيا، حيث هاجم المستشرقون الغربيون العربية الفصحى واتهموها بالضعف والانحلال والتخلف ورموها بعدم قدرتها على مسايرة ومجاراة الحضارة الحديثة. ومن أبرز المستشرقين الذين هاجموا اللغة العربية يمكن الإشارة إلى المستشرق الاسكتلندي المعروف إلياس جون جب (١٩٠١-١٨٥٧) ((Elias John Wilkinson Gibb الذي كان له قصب السبق في إدانته للعربية الفصحى. وفي دائرة الهجوم على العربية يرى "جب" أن مشكلة العربية تكمن في عدم قدرتها على التجاوب مع متطلبات الحضارة المدنية المعاصرة زاعما أن العربية غير قادرة على الوفاء بحاجات الحياة المدنية في العلم، والفن، والصناعة، والاقتصاد"(بركات،٢٠٠٣، ١١٤). وهكذا "اتهم المستشرقون الفصحى بضعف كفايتها العلمية؛ نظرًا لعدم قدرتها على " مسايرة التطور العلمي الحديث، بحجة عدم وجود المراجع، والكتب العلمية باللغة العربية، حتى يستطيع كل من المعلم، والتلميذ أن يتدارسوها "، كما ادعوا أنها " لغة كلاسيكية لا تصلح للحياة العصرية، إنها لغة معقدة صعبة، تضيق عن استيعاب العلوم والمبتكرات "، بسبب قلة ألفاظها، ومصطلحاتها. فهذه المزاعم وتلك الاتهامات كانت هي السبب الرئيس في الدعوة إلى العامية، بدلا من الفصحى، واستبدال حروفها بحروف أجنبية أخرى" (بركات،٢٠٠٣، ١١٤).

وهناك نزعات للتركيز على اللغات العامية وفصلها عن الفصحى "وتتماشى هذه الرؤية مع تلفيق لغة مستقلة خاصة بهذا القطر أو ذاك، مثل التركيز من جانب واحد على "مصرية" ما يسمى بالعامية المصرية، مع تجاهل أو تحدّ أو التقليل من شأن كونها لغة عربية، أو حتى مع الاعتراف بعربية "العامية المصرية" مع المبالغة في حجم المكوِّن المصري أو الفرعوني أو القبطي في هذه اللغة" (الرخاوي، ٢٠٠٣). وقد

شهدت الفصحى أخطر هجوم على يد المستشرق وليم ولكوكس (William Willcocks)(١٨٥٢-١٩٣٢) مهندس الري الإنجليزي في مصر. وظهرت ملامح هذا الهجوم الكبير والصريح عندما ألقى ولكوكس محاضرة في نادي الأزبكية بمصر عام ١٨٩٣يدعو فيها إلى رفض العربية واستبدالها باللهجة العامية المصرية. وقد نشر محاضرته المشؤومة هذه في مجلة الأزهر بعنوان " لمَ لمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن؟ "، وزعم ولكوكس في هذه المقالة أن التأليف باللغة العربية الفصحى يعيق المصريين عن الاختراع والإبداع، ويرى أن العامية المصرية هي الأفضل والأقدر على تنمية ملكة الإبداع والابتكار والنهضة العلمية، وانطلاقا من هذه الرؤية دعا المصريين إلى نبذ الفصحى ورفضها واستخدام العامية بديلا لها (بركات،٢٠٠٣، ١١٣). وشدد ولكوكس دعوته عبر مجلته التي سماه (الأزهر) إلى عدم استخدام الفصحى كلغة أساسية للتعليم في المدارس لأنها تتناقض مع الفكر الحر لدى الطالب، ولا تتجاوب مع متطلبات العقل والتفكير النقدي؛ وفي كثير من إشاراته يعلن أن الطالب المصري يبذل جهدا كبيرا ضائعا لترجمة ما يقرؤه من الفصحى إلى العامية، وعلى التوالي ترجمة ما يفهمه من العامية إلى الفصحى، عند الكتابة مرة أخرى، وعلى هذا الأساس اقترح ولكوكس اعتماد العامية المصرية لغة التعليم والتربية والحياة العلمية والفكرية على امتداد الديار المصرية، وكان يروج أنه يمكن لمثل هذه التجربة أن تحقق نجاحا خلال عشر سنوات يمكن خلالها نشر العامية والتحرر من المعاناة الحضارية التي تفرضها الفصحى.

ولم تقف دعوة ولكوكس عند حدود التوجهات الفكرية المشروعة في أي قضية من القضايا الفكرية والسياسية، بل تجاوز حدود الأيديولوجيا إلى الممارسة الفعلية تطبيقا لدعوته نبذ الفصحى وإقصائها، وتمثلت هذه الممارسة في الوقت الذي أعلن فيه عن مسابقة جائزتها أربعة جنيهات إنكليزية لمن يترجم سورة من القرآن الكريم بالعامية المصرية، ثم جعل نفسه قدوة بأن ترجم جزءاً من الإنجيل إلى العامية. وسار على طريقة القاضي (سلدن ولمور) وآخر ألماني يعمل في دار الكتب، وحذت حذوهم مجلة المقتطف عندما كانت تصدر في بيروت وأسهمت معهم بشيء من الاعتدال مجلة الهلال»(الجهني، ٢٠٠٩).

وكانت اللغة العربية إحدى القضايا التي عالجها المجتمعون في لقاء الدول الثماني عام ٢٠٠٤ حيث خصص لها المشاركون بندا يتعرض لمسألة تحديث اللغة العربية وقرر المجتمعون في هذا المجال ما يلي (بن تنباك،٢٠٠٥):

١. إن عدم تطوير اللغة العربية وعدم تحررها من أشكالها القديمة التي ظلت عليها منذ قرون، أدّى فعلياً إلى صعوبة كبرى في استيعاب أهل الحضارات والأديان الأخرى لهذه اللغة أو تعلمها أو الاقتراب فكرياً ممن يتحدث بها.

٢. إن الإرهابيين الذين يتحدثون اللغة العربية وتتم ترجمة كلماتهم إلى الإنكليزية أو الفرنسية لا نعرف شعورهم الحقيقي أو الدوافع الكامنة وراء ارتكابهم لهذه الأحداث ، لأن الترجمة العربية إلى اللغات الأخرى يبدو أنها تواجه مشكلات حقيقية نحن غير قادرين على تصنيفها وتبيان أسبابها الحقيقية.

٣. إن العلوم الدولية لا تستطيع أن تعتمد هذه اللغة بسبب تعقد رموزها وصعوبة أشكالها في الوقت الذي يستطيع أهل اللغة العربية ومتحدثوها إتقان اللغات المشتقة من اللغة اللاتينية مثل الإنكليزية والفرنسية.

٤. العرب يتحدثون اللغات الأوروبية مثل أهلها تماماً مما يؤكد سهولة أشكال وحروف اللاتينية وقدرتها على التأقلم والتطوير تحت أي ظرف.

٥. ندرك أن هناك لغة مشتركة يمكن أن تجمع كل سكان الكرة الأرضية فيما عدا الذين يتحدثون باللغة العربية وهو مما يجعل من الصعب بنا التواصل معهم أو معرفة دوافعهم النفسية.

٦. إن صعوبة التقاء اللغة العربية مع اللغة الإنكليزية كانت الدافع الرئيسي وراء موجة الكره العربي لأمريكا وإسرائيل والشعور بالبغض والانتقام من الذين يتحدثون الإنكليزية والفرنسية (بن تنباك، ٢٠٠٥).

وتشكل هذه التصورات التي اتفق عليها المؤتمرون برهانا قطعيا على أن اللغة العربية تواجه تحديات عدوانية من قبل الدول الغربية وأن هذه اللغة مستهدفة في جوهرها وفي كيانها.

ولم يقتصر الأمر على اتهام المستشرقين للغة العربية بقصورها وعدم كفايتها العلمية، إذ شهدت الساحة الفكرية ولادة تيار كبير من المستغربين العرب الداعين إلى نبذ الفصحى ورفضها لغةً للعلم والمعرفة والتربية، وذلك لأنها (حسب زعمهم) لغة قاصرة عاجزة عن أداء دورها الحضاري والتجاوب مع الحداثة ومعطيات العصر. ويشار

في هذا المضمار إلى محمد حسين هيكل (١٨٨٨-١٩٥٦)[١] بوصفه أكثر المفكرين العرب عداوة للعربية الفصحى وأكثرهم حماسة واندفاعا في الدعوة إلى العامية المصرية تحديدا بديلا للفصحى(انظر ويكيبديا الموسوعة الحرة الإلكترونية). لقد رأى هيكل عدم ملاءمة الفصحى للحضارة الحديثة، وكان يدعو إلى تمصير اللغة العربية وأنه يجب على الكتاب أن يستمدوا موادهم الكتابية من الحاضر بألفاظه و تراكيبه و معانيه وليس من الماضي. ويقول هيكل بهذا الصدد: " والحق أن اللغة العربية على ما خلفتها حضارة العرب كثيرًا ما تستعصي على صور هذه الحضارات الحديثة، وليس عليها من ذلك ذنب، وليس في طبيعتها دون الوصول إليه عجز، ذلك بأن اللغة العربية أداة، وإن لم يدم صقلها علاها الصدأ، ثم كان فيها تثاقل عن السير المطمئن إلى حيث يحتاج إليها الذهن الفياض بمعان وصور جديرة، ولقد يبلغ من صدئها أن يقبرها "(بركات،٢٠٠٣، ١٢٦-١٢٧). وهكذا رأى هيكل أن الفصحى لا تتماشى مع الحضارة الحديثة؛ لأنها صارت لغة عاجزة تعاني من الشيخوخة، وصار يعلوها الصدأ، وإن لم تنهض بنفسها فستموت وتقبر وهو بهذا يردد نفس فكرة ولكوكس" في ضرورة تطور اللغة وتجديدها؛ لأنها بحالتها تلك تعد متخلفة وعائقًا للتقدم(بركات،٢٠٠٣، ١٢٦-١٢٧).

ولم ينفرد هيكل في دعوته هذه، إذ شهدت الساحة الفكرية تنامي تيار فكري كبير يدعو إلى رفض الفصحى بوصفها عقبة حقيقية في وجه التطور والحياة والحضارة. وإلى هذا التيار ينتسب المفكر المصري يوسف السباعي (١٩١٧-١٩٧٨) الذي دعا إلى تبني العامية ورفض الفصحى إذ يقول مهاجما الفصحى: "يجب أن نتحلل من هذه القيود السخيفة، لماذا كل هذا التعب؟ ألأن العرب منذ ألف سنة رفعوا هذه و نصبوا تلك .... ليكن .... لنحافظ على تراثهم كما هو .... على أن نحلل لغتنا من أثقاله وقيوده، و نقولها بأبسط الطرق، لنسكن آخر كل كلمة، و لنبطل التنوين، ولنقل الجمع بالياء فقط، ولنحرم أدوات الجزم والنصب من سلطاتها، لنتحلل من كل هذا، و لنصرف الممنوع من الصرف، ولنتحدث بلغتنا دون خوف من لحن أو خطأ، يجب أن يزول احتكار اللغة بقيودها وقواعدها و نحوها و صرفها، وعلى أية حال إن لم نحطمها الآن فستحطمها الأجيال القادمة فلنكن شجعانا ونريحهم نحن منها " (إبراهيم، ٢٠٠٧).

وقد مهد الهجوم الشديد على الفصحى، واتهامها بالضعف والقصور، للدعوة إلى تبني العامية واللهجات المحلية. وفي هذه الأجواء المعادية للعربية الفصحى تنامت

[١] - يرجى التمييز بين الصحافي محمد حسنين هيكل ومحمد حسين هيكل .

الدعوة إلى التخلي عن العربية الفصحى وتبني اللهجات العامية العربية في كل قطر من أقطار العالم العربي. ويؤخذ على المصلح الكبير رفاعة الطهطاوي الذي ترك بصماته الإيجابية على التعريب في مصر أنه خصص فصلا من كتابه «أنوار توفيق الجليل وتوثيق أخبار بنى إسماعيل» للحديث عن اللغة العربية ووجوب إحيائها، لكنه ضمنه دعوة إلى استعمال اللهجة العامية ووضع قواعد لها والاعتناء بها، ورأى أنه لا مانع من أن يكون للعامية قواعد قريبة المأخذ تضبطها، وأصول على حسب الإمكان تربطها، ليتعارفها أهل الإقليم، حيث نفعها بالنسبة إليهم عميم، وكان الطهطاوي أول من أدخل العامية إلى لغة الصحافة وذلك في صحيفة الوقائع المصرية التي كان يشرف عليها (حسن، ٢٠١٠).

ثم بدأت الدعوة إلى تبني العامية تأخذ مداها ويشتد عودها، وبدأ بعض المفكرين يؤلفون بالعامية ويعملون على تقعيدها، وضمن هذا التوجه ألف المستشرق الألماني «ولهلم سبيتا» – الذي كان مديرا لدار الكتب المصرية في أواخر القرن التاسع عشر– كتابا سماه «قواعد اللغة العامية في مصر» عام ١٨٨٠. وضمن هذا الكتاب هجوما ربط فيه بين العربية الفصحى والتخلف، فقال: إنه «بالتزام الكتابة بالعربية الكلاسيكية القديمة لا يمكن أن ينمو أدب حقيقي ويتطور، لأن الطبقة المتعلمة القليلة العدد هي وحدها التي يمكن أن يكون الكتاب في متناول يدها». ثم يقول: «لماذا لا يمكن تغيير هذه الحالة المؤسفة إلى ما هو أحسن؟ ببساطة لأن هناك خوفا من تهمة التعدي على حرمة الدين إذا تركنا لغة القرآن تركا كليا (حسن، ٢٠١٠).

وفى نفس الاتجاه صبت دعوة المستشرق الإنكليزي «سلون ولمور» – الذي تولى القضاء بالمحاكم الأهلية بالقاهرة إبان الاحتلال الإنكليزى لمصر– فأصدر كتابا بعنوان «العربية المحلية في مصر» في عام ١٩٠١ طالب فيه باتخاذ العامية المصرية لغة أدبية بدلا من الفصحى ووضع قواعد لها. ثم أيد دعوة سابقيه إلى كتابتها بالأحرف اللاتينية، مهددا ـــ في حال عدم الاستجابة لدعوته ـــ بانقراض لغتي الحديث (العامية) والأدب (الفصحى) نتيجة لزيادة الاتصال بالأمم. (حسن، ٢٠١٠). وكان "ولمور" يدعو إلى استخدام العامية في وسائل لأن وسائل الإعلام أفضل وسيلة لإعطاء العامية مشروعية وجودها وحضورها. وكان يرى أنه يجب على الصحف أن تتخذ الخطوة الأولى لتعميم العامية وترويج استخدامها، وعلى هذا النحو فإن النشر بالعامية سيؤدي إلى انتشار القراءة والكتابة في مختلف أنحاء البلاد وفي فترة قصيرة نسبيا. وتزعم عبد العزيز

فهمي عضو مجمع اللغة العربية الدعوة إلى العامية بديلا للفصحى، فقدم إلى مجمع اللغة العربيّة ففي القاهرة في عام ١٩٤٣ مشروعا تغريبيا يدعو فيه إلى «استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية». ولما رفض تبنى «سلامة موسى» هذه الدعوة واصفا عملية تبني الحروف اللاتينية بأنها "وثبة المستقبل" وأن الحروف اللاتينية ستكون مصدر إلهام حضاري وحداثي (حسن، ٢٠١٠).

وفيلبنان تبنى الدعوة نفسها الشاعر سعيد عقل، الذي هاجم اللغة العربية بأصولها الدينية، إذ يقول: «إن من أراد لغة القرآن فليذهب إلى أرض القرآن (حسن، ٢٠١٠). وقد أنشأ عقل أول مطبعة لكتابة المحكية اللبنانية بالحروف اللاتينية مع إضافة بعض الحروف إليها. وفي هذه المطبعة بالذات قام عقل بطبع مجموعة من كتبه ودواوينه الشعرية، كما أصدر صحيفة يومية باللغة عينها (خير الله، ٢٠٠٥، ٥٤).

ووجدت دعوة عقل صداها لدى «أنيس فريحة»، الذي كان من أبرز دعاة العامية والحروف اللاتينية في لبنان. وكان فريحة في دعوته هذه يعترض على اعتماد اللغة العربية كلغة للجيل الحاضر، وكان يرى أن الذين استنبطوا قواعد العربية وضبطوا أحكامها اعتمدوا الشعر الجاهلي أولا ثم القرآن الكريم مادة لغوية. وهو يعترض على ذلك بقوله:"متى كانت لغة الشعر ولغة الأدب والدين مرآة تعكس لغة الناس فى معاشهم ومكاسبهم»؟ !(حسن، ٢٠١٠).

وظهرت عدد من الكتب التي عملت على النيل من العربية الفصحى وأهمها:

- كتاب " لغة بيروت العامية" للمستشرق إمانويل مانسين.
- كتاب " لغة مراكش العامية وقواعدها" لابن سحيل.
- كتاب " قواعد العامية الشرقية والمغربية" للمستشرق كوسان دويرسغال.
- كتاب " عامية دمشق" للمستشرق براغستراس.
- كتاب " قواعد العربية العامية في مصر " للمستشرق الألماني ولهلم بيتا.
- كتاب " قواعد اللهجة اللبنانية السورية " لرفائيل نخلة.
- كتاب " قواعد العربية العامية في مصر " للمستشرق الألماني ولهلم بيتا.

كما ألفت العديد من المصنفات في منطقة الخليج العربي لتخدم الغرض عينه وبخاصة بعد اكتشاف النفط. (خير الله، ٢٠٠٥، ٥٣).

ولم يقتصر الهجوم على اللغة العربية على ما رميت به من ضعف في بنيتها وأدائها وفقدان قدرتها على مواكبة العصر، بل تعرضت لنوع آخر من الهجوم أكثر خطورة وتدميرا يرميها في صميم جوهرها وتكوينها، حيث اتهمت بأنها لغة دينية مغسولة الدماغ غير قادرة على استلهام الحضارة الإنسانية. ويظهر هذا الهجوم في مقالة لعبد الرحمن عبد الهادي بعنوان (الذهنية العربية: منظور لغوي) شن فيها هجوما على الفصحى في صميم وجودها وهويتها وماهيتها الحضارية فيقول:

" فإن عدنا إلى اللغة العربية التي هي أداة مشكلة ومتشكلة مثلها مثل الإنسان العربي، لوجدنا أنها أداة "مغسولة الدماغ" عاشت في مخزون التبديد عدة قرون، فاللغة العربية انتشرت وسادت في ظل سيطرة دينية، وامتلكت سطوة إيمانية جاهزة المفردات، مكتملة الصياغات ثابتة الدلالات عند حاجز علوي متسام لا يمكن الخوض في أو التساؤل عنده، أي إننا نستطيع القول بأنها تشكلت في إطار المطلق اليقيني المتعالي، وبالتالي أخذت كما هي، ويتم تعليمها كما هي بالمناهج نفسها منذ أكثر من عشرة قرون، وتستطيع أن تفتح كتب اللغة العربية من الابتدائي إلى الجامعة، لتجد أنها لم تتغير منذ مئات السنين، المناهج نفسها والتعبيرات نفسها، والنصوص نفسها، الروح نفسها وكأن العالم واقف لم يبرح مظلة قريش قبل الهجرة وبعد الهجرة، وهي حالة مذهلة قلما نجد لها نظيرا في أي لغة أخرى في العالم، وقد أوحى لنا هذا بملاحظة كثرة الشعراء في وطننا العربي وغلبتهم على كل مجالات الإبداع المختلفة، علمية وأدبية، وكأنهم يكررون حالة العري القديم ساكن الصحراء المتغني بمجده التليد،أو كأن الشاعر الجاهلي القديم نفسه انبعث من جديد فملأ صحفنا ضجيجا وأوراقنا طباعةً ونشرا"(عبد الهادي،١٩٩٣، ١٧).

ويتابع عبد الرحمن عبد الهادي هجومه على العربية متهما إياها بأنها لغة مجردة غير واقعية غير قادرة على تحقيق فعل التواصل الإبداعي الفلسفي فيقول: " علينا أن نكشف الغطاء عن "البنية المفهومية" العربية، فندعي أنها بنية "نظرية تجريدية" أكثر منها بنية "عملية"، وطابع الإبداع فيها طابع كلامي وليس طابعا علميا ملموسا يصل إلى حد الكلام المجرد الذي يشبه لغة الجنون بالمعنى النفسي، أي توليد ألفاظ من ألفاظ وصيغ، من ألفاظ وصيغ أخرى تمتد وتمتد لتفرق ملة عن أخرى، وفرقة عن فرقة، ويكفي أن تطلع على نصوص مذهبية لفرق مثل الباطنية أو المعتزلة أو الأشاعرة وحتى الظاهرية والغزالية، لتدرك أن العمل الفكري الذي تمّ قام كليا على عمليات ذهنية وعلى

حجج منطقية "(عبد الهادي،١٩٩٣ ،٢٢). فالإعجاز العربي " العربي إعجاز لفظي، فالعربي لا يرى في طلوع الإنسان إلى القمر معجزة، بل أحيانا ما نجد بعض الناس ينكرها، والعربي لا يرى الهاتف والتلفاز والسيارة والقطار والطائرة والصناعة، أو أي أداة جلبها العلم الحديث (عبد الهادي،١٩٩٣ ،٢٥). وفي هذا السياق يقول أبو علي ياسين مؤكدا على الطابع النظري اللفظي للغة العربية وطابعها المطلق: "الجملة العربية هي إما جملة اسمية أو جملة فعلية، أما الجملة الأوروبية فهي دائما جملة فعلية، الجملة الاسمية توحي بإطلاقية لا نلحظها في الجملة الفعلية، لأن الفعل مرتهن بالزمان؛ هي بصورة ما سلوكية لا تعبر عن حدث بل عن حالة وعن ديمومة ظاهرية-مهما قصرت واقعيا- ويقول أيضا "تبدأ الجملة العربية الفعلية بالفعل في حين تبدؤها اللغات الأوروبية عادة بالفاعل، هذا يعني أن العرب يهتمون أولا بالفعل ثم ينظرون إلى الفاعل (عبد الهادي، ١٩٩٣، ٢١).

ومن جديد يعود عبد الهادي للتأكيد على الطابع النصي المقدس للغة العربية، فيرى أن الفعل الحضاري تمّ تجميده بالمقدس النصي الذي سطا على الفكر والتفكير السائد حتى الآن. وتأسيسا على هذه الرؤية ينادي عبد الرحمن بالابتعاد عن الأصول اللغوية لخلق دلالات جديدة للألفاظ يوسع ويعمق مساحة الحرية العقلية للإنسان، لأن هذه المساحة نفسها تولد الألفاظ الجديدة والدلالات الجديدة، وهي بذاتها- كتعبير عن هذه الحرية-توسع دائرتها ومداها كيفيا وكميا في الوقت نفسه (عبد الهادي، ١٩٩٣، ١٩). ومن الواضح أن عبد الرحمن ينطلق من وجهة نظر حداثية يرى فيها أن تشبعات اللغة بالماضي والتيارات السلفية الجامدة قد أضعفت اللغة وجعلتها خارج مسارها الحضاري. ولا نحسب في نهاية الأمر إلا أن نرى في آراء عبد الرحمن مقدمة ربما للتفكير فيما علق باللغة العربية من شوائب الماضي وإيجاد المخرج الحيوي من أجل تطوير الأداء الحضاري للغة العربية.

وإلى هذا المذهب يذهب خلدون النقيب في الكويت إذ يعلن قلقا منهجيا حول أوضاع اللغة العربية ويوجه أصابع الاتهام إلى طريق تدريس اللغة وبنيتها القواعدية الجامدة فيقول متسائلا: "بأي لغة يتم توصيل المعلومات للطلبة؟ وهل تواكب اللغة العربية بوصفها لغة التواصل الاجتماعي تطور المجتمع وتطور الحياة الاجتماعية؟" وفي معرض تناوله لهذه المسألة يرى النقيب أن اللغة المستعملة في التدريس تبقى في حدود المدرسة، ولا تستعمل في الحياة اليومية، وليس لها صلة بالواقع المعاش، وإذا ما أردت التفكير والكتابة بها لابد أن تخضع عمليتي التفكير والكتابة إلى مرجعية لغوية تعود إلى

أكثر من اثني عشر قرنا، والنص إذا لم يشكل سواء كان شعرا أو نثرا وجدت نفسك عرضة للحن والخطأ في فهم المعني. فلم تكن مشكلة طالبات الأستاذ حمام في فيلم (غزل البنات) القدرة على القراءة وإنما تتمثل في عدم القدرة على تشكيل الكلام لأنه غير موجود في النص" (النقيب،٢٠٠٢، ١٨).

ثم يقترح النقيب حلا بقوله:" وليس من حل لهذه المشكل التربوي إلا في تجاوز الأطر التراثية الحديدية التي تقيد اللغة العربية إلى منطلقات رحبة من المعاني المستوردة من التجربة المتجددة، التي تعيننا على تحدي النخبة المهيمنة، سواء كانت حاكمة أو تراثية أو المكونة من النحاة التقليدين، وفي تحدي القوالب المستجدة للسيطرة والرقابة على المفردات اللغوية في لغة الميديا والقوالب المنطقية لوسائل الإعلام ولغة الآلات والصور المتخيلة التي تبثها الأقمار الصناعية. وكأن الجنس البشري يخرج من العتمة ليدخل كهف أفلاطون الذي لا تُرى فيه الأشياء الحقيقية لأنها مجرد خيالات يعكسها الضوء على جدران الكهف الأسطوري".

وكذلك ينتسب رأي النقيب إلى الاتجاهات النقدية في التعاطي مع اللغة العربية الفصحى، حيث نجد توجها مركزيا يهدف إلى إخراج اللغة العربية من صومعتها التاريخية الكلاسيكية والترحيب بها قوة حضارية جديدة لتمارس دورا حداثيا مميزا في حياة العرب المعاصرة.

٧-٢-١- الهجوم على العامية:

غالبا ما صورت العامية بأنها آفة لغوية تهدد اللغة وتدمر مقومات وجودها. وإلى هذا الأمر ذهب بعض المفكرين في اعتقادهم أن العامية أعشاب ضارة في حقل اللغة، وأنه يجب على المعنيين باللغة اجتثاث هذه الأعشاب وتطهير الحقل اللغوي من سمومها وأضرارها. ومن هذه الزاوية واجهت العامية موجة عدائية كبيرة تصدرها عدد من فرسان الكلام الذين قللوا من شأنها وانتقصوا من قيمتها وبخسوها حقها. وفي هذا المقام يورد الزغلول عددا من التوصيفات السلبية ضد العامية فيقول: " وقد وصفت العامية بأقذع الألفاظ من قبل الأدباء والكتاب العرب، فهي "مصاحبة للجهل والسوقية"، كما قال زكي عبد الملك، و" لغة السكارى والخدم ... فوضوية ولا قواعد لها"، كما يقول مازن مبارك، " علامة للجهل والأمبريالية "، كما يقول علي ناصيف، " لا تستحق أن تسمى لغة، ولا تلائم أهداف الحياة الثقافية كما يقول طه حسين، " ينشرها ويحبذها الأميون" كما يقول مصطفى فهمي(الزغلول، ٢٠٠٠، ٦٢).

ضرورة العامية:

وعلى خلاف هذا التصور ينفرد عدد آخر من الباحثين بالقول بضرورة العامية وأهميتها ضمن حدود الحقل الذي تمارس فيه، وإلى هذه الفئة من المفكرين ينتمي الباحث اللغوي يحيى الرخاوي الذي يقول: "أما اللغة (اللغات) العامية فهي لغة لا شك في ذلك، وهي لغة قادرة ومبدعة وفاعلة، ولا يوجد ما ينقص من أحقيتها في ذلك، لهذا لا ينبغي إغفالها أو تهميشها، وإلا كنا نفتعل مسيرة ضد طبيعة التطور، وضد حركية اللغة، وضد فرص الإبداع، كما أن ما يسمّى "المعرفة الحكائية" إنما يستلهم كثيرا من مصادره من لغة الناس في الحياة الآنية، أو فيما يترتب عليه من تراكم عبر التاريخ في شكل أمثال أو عادات، سواء ظهر ذلك في الفعل اليومي، أو في الإبداع المعرفي أو غيره، كل ما في الأمر أن هذه اللغات (اللهجات) العامية لا ينبغي، ولا تقدر، أن تحل محل العربية الفصحى، وإنما هي تستطيع وينبغي أن تجاورها وتتحاور معها وتثريها وتكملها" (الرخاوي، ٢٠٠٣) .

متى تشكل العامية تهديدا للفصحى:

يرى بعض المفكرين القوميين والإسلاميين أن وجود العامية وانتشارها الواسع يهدد وجود اللغة الفصحى ويقوض أركانها، وهذا بدوره يؤدي إلى تقويض اللغة في صورتها الكلية. وغالبا ما ينظر أصحاب هذا الاتجاه القومي الإسلامي إلى "العامية" أو "العاميات" العربية على أنها خطر كبير يهدد الأمة العربية ككيان ثقافي. وينطلق أصحاب هذا الاتجاه من عصبية التمجيد المطلق للفصحى بوصفها لغة الدين والهوية القومية.

ويربط بعض الباحثين رؤيتهم للازدواجية اللغوية بمدى انتشار العامية وبطبيعة التوازن الذي يجب أن يكون بين اللغتين، فاللغة العامية " خطيرة جدا إذا تُرك لها العنان لتسود وتقود" (القرضاوي، ٢٠٠٤) . وهذا يعني أن خطر العامية يكون في جوهر الأمر عندما تتخطى الحدود والحواجز الطبيعية لدورها ووظيفتها الحيوية وعندما تتوغل في المناطق الحيوية للفصحى كالتعليم والإعلام وفي مجال المراسيم والطقوس العلمية والأدبية ووسائل الإعلام، وفي هذه الحالة فإنها تشكل تهديدا حقيقيا، ليس للغة الفصحى فحسب، وإنما للغة العربية في صورتها الكلية.

وتكمن الخطورة الناجمة عن التوسع الكبير للعامية على حساب الفصحى في الحسابات التي تنجم عن هذه الوضعية. فعندما تأخذ العامية مكان الفصحى فإن كل لهجة كما يقول الضبيب: "سوف تتحول مع مرور الزمن إلى لغة كما حدث عند أمم أخرى.

تصبح كل بيئة لهجية كياناً مستقلاً عن البيئات الأخرى، له لغته التي لا الأخرى، ولا يخفى ما في ذلك من خطر على وحدة الأمة. كما أن هذه ستقلت فسوف يكون لها أدبها ولغتها الرسمية التي تبتعد بها عن لغة سلامي المكتوب بالعربية الفصحى. وفي ذلك انقطاع عن الإرث خي لهذه الأمة"(مجلة المعرفة، ٢٠٠٩).

اه يذهب الجهني بقوله: "تبقى العامية أقل خطراً إذا بقيت في حدود صح التعبير)، لكنها تصبح خطراً محدقاً بمستقبل الفصحى عندما تصبح عبر وسائل الإعلام المختلفة، وهو الأمر الذي بُلينا به حتى في صحفنا جزيرة العربية مهد الفصحى ومنشؤها! (الجنهي، ٢٠٠٩).

لدارسين لهذه القضية أن الخطر يكمن في حدود المسافة الفاصلة بين لفصحى. فالمسافة بين العامية والفصحى في اللغات الأجنبية غالبا ما فيما يتعلق بالبنية والتراكيب والقواعد ونظام الدلالة، وفي هذه المعادلة ، العامية ظلا للفصحى ولا يوجد ثمة تهديد للغة المعنية. وهذه هي ها الباحثون في اللغة الإنكليزية والفرنسية.

ـ يقول خليل كلفت "إن المسافة بين الفصحى والعامية، إنْ جاز القول، سر بما لا يقاس منها فيما بين الفصحى والعامية في العربية. ففي النسق اللغوي- النحوي الواحد، وبالتالي الانسجام اللغوي، ووحدة ر عن اختلافات اللهجات ومستويات الاستخدام، على حين يوجد في نسقان نحويان متعارضان تماما، مرحلتان نحويتان في تطور اللغات، الكيفي الذي يخلق ظاهرة الازدواج اللغوي عندنا" (كلفت، ٢٠١٢) . لية الكبرى لعملية الصراع بين العامية والفصحى، وفي هذا الوضعية را على الفصحى كما هي خطر على اللغة برمتها. وذلك ناجم عن حدّة ة المتباعدة بينهما.

عامية والفصحى:

سألة الازدواجية اللغوية طابعا أيديولوجيا وشكلت مادة خصبة للصراع فريقين: أحدهما يدعو إلى نبذ الفصحى وتبني العامية، والآخر يدعو ، ومحاربة العامية. وبين هذه الفريقين ظهرت دعوات إلى عقلنة

العلاقة بين العامية والفصحى وتحديد ملامح وطبيعة العلاقة الوظيفية القائمة بينهما. ولكل فريق من هذه الفرق الثلاثة أسبابه ومنطلقاته الفكرية والأيديولوجية التي لا تخفى على أصحاب العلم والمعرفة.

ومما لا شك فيه أن الفريق الذي يدعو إلى محاربة الفصحى يتبنى نسقا فكريا تغريبيا معاديا للفكرة القومية ونزعاتها العروبية. أما أصحاب الفريق الذي يدعو إلى تبني الفصحى ونبذ العامية فيؤسسون لرؤيتهم من منطلق قومي أو إسلامي يعظم الفصحى وينحو إليها بوصفها قوة حضارية عربية أو إسلامية. أما أصحاب الاعتدال فغالبا ما يشكلون فئة من هؤلاء الذين اتخذوا العقلانية والموضوعية منهجا أيديولوجيا لهم في الحياة والفكر دون أن يغلبوا الطابع الأيديولوجي على منظورهم اللغوي.

وهكذا نجد أنصارا للفصحى لا يحيدون عنها، وأنصارا للعامية لا يقبلون بغيرها، وبين هذين الاتجاهين نجد بعض المفكرين الذي يرون بضرورة الحضور الازدواجي للفصحى والعامية على أن تكون كل منهما في مجالها الطبيعي انطلاقا من التسليم في كل الأحوال بأن الازدواج طبيعي بين الفصحى والعامية وأن أحدهما لا يستقيم بغير الآخر.

هذا ويعلن كثير من المفكرين ضرورة تحقيق التوازن والانسجام اللغوي بين العامية والفصحى؛ لأن هذا التوازن الخلاق يشكل طاقة كبرى في تجاوز الانشطارات الفكرية وفي تحقيق الانسيابية اللسانية خارج دائرة التوتر والصراع الأيديولوجي بين الاتجاهات المتصلبة. وهذا يعني أنه لابد من سيادة النسق اللغوي الواحد، وهذا عامل غائب في حالة العرب واللغة العربية على مرّ القرون بسبب الازدواج اللغوي الطويل الأمد، الذي جعل الاستثناء قاعدة، والذي يصل الآن، في العصر الحديث، إلى أقصى درجات التفاقم والاستفحال والخطورة . وضمن هذا السياق فإن العامية لا تشكل خطرا على الفصحى عندما تتم عقلنة هذه العلاقة في نسق إيجابي منظم، فالعلاقة المتوازنة بين شقي اللغة يمكن أن تكون منطلقا لإثراء اللغة الفصحى وتأصيل قدرتها الحضارية. والعامية وفقا لهذا التصور لا تضير الفصحى ولا تنتقص من قيمتها أو أهميتها ووظيفتها. ومن اللافت أن المركز العربي للتعريب في الجزائر يتبنى هذا التوجه، إذ يرى القائمون على المركز أنه "لا يوجد تنافر بين اللغة العالمة الفصيحة وبين اللغات العامية الشعبية التي تمثل عامل إثراء وغنى، إذا عرف اللغويون وعلماء النحو والبيان كيف يستثمرون هذه المادة الخام لإدخالها في النسيج الحي للغة"(المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر ٢٠١٠، ٢٣). فالعاميات المتداولة في مجتمعاتنا يجب أن

نهذبها ونقاربها لا كظاهرة مرضية يجب القضاء عليها، ولكن كواقع يمكن الارتقاء به، من خلال تقريب العربية و تحبيبها للناشئة وللناس بواسطة برامج مدروسة (المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، ٢٠١٠، ٢٤). وبناء على هذه الرؤية يجب أن تقوم العلاقة بين العامية والفصحى على التوازن والتكامل والتفاعل، فالعامية ترفد الفصحى والفصحى تغتني بالعامية وتستلهم مصادرها، وكذلك فإن العامية تتوازن بنيويا وتمنح أصالتها من الفصحى. وهذه العلاقة غالبا ما تشكل علاقة توازن خلاق بين المستويين، وقد أدت تاريخيا إلى نوع من التخاصب اللغوي الذي لطالما أثمر وأغنى اللغة في شمولها. وعلى هذا الأساس يدعو كثير من الباحثين اليوم إلى وضع كل واحدة منهما (العربية والفصحى) في إطارها الصحيح في حياتنا، وذلك عن طريق تنظيم العلاقة بهما بحيث لا تطغى أي واحدة منهما على الأخرى، أو تأخذ مكانها السيادي في حياتنا.

وفي دائرة التخاصب بين العامية والفصحى يرى بعض المفكرين أنه يمكن تعميم الفصحى بتفصيح العامة أو تفصيح العامية بتعميم الفصحى. وهذا يعني العمل على الارتقاء باللغة العامية وتقعيدها على منوال الفصحى أو إغراق العامية بقوة الفصحى إلى الحد الذي تتطابقان فيه من حيث الجمال والقوة والقدرة.

ويبين أهل العلم والفصاحة أنه إذا تعرضت العلاقة بين الفصحى والعامية للخلل، فإن ذلك قد يؤدي إلى خلل في بنية اللغة ككل، وهو ما قد يؤدي إلى طغيان العامية وانحسار الفصحى. وهذا الطغيان يؤدي إلى تدمير اللغة ذاتها وضياع مكونات هويتها ووجودها. وغالبا ما تكون هذه العلاقة نتاجا حيّا لطبيعة التخلف الثقافي والاجتماعي الذي يعانيه مجتمع ما بعينه.

وتبين الدراسات الجارية اليوم أن الفارق بين العامية والفصحى يجب ألا يكون شديد الاتساع والعمق في الحالة الطبيعية، ويجب ألا يكون ذاك التباين بين المستويين حائلا دون الفهم. وعندما يصل الفرق بين العامية والفصحى إلى حد امتناع الفهم بين أبناء الأمة الواحدة فهذا يعني حالة مرضية، وأن اللغة قد تعاني حالة انحسار وتراجع ربما يصل إلى حدّ الانقراض. وضمن هذه المقاربة يلاحظ الباحثون اللغويون أن الفارق بين اللهجات الإنكليزية وبين اللغة الإنكليزية الفصيحة، مثلاً، هو فارق ضئيل جداً لا يحول دون الفهم، على حين أن الفارق بين اللغة العربية الفصحى ولهجاتها فارق كبير جداً.

وفي هذا المقام يبين لنا علي القاسمي في بحث له حول انحسار اللغة العربية وتراجعها أن اللغات الأجنبية اعتمدت سياسات حكيمة من أجل المحافظة على لغاتها من تغوّل العامية، وتقوم " هذه السياسات على استخدام اللغة الفصيحة المشتركة في التعليم والإعلام والإدارة والتجارة وجميع مجالات الحياة، فيعتاد المواطنون على سماعها وقراءتها، ويتمكنون منها وتقترب لغتهم الدارجة من اللغة الفصيحة"(القاسمي، ٢٠٠٧). فاللغة العربية الفصيحة نتاج حضاري تشكل عبر فعاليات حضارية ممتدة لقرون خلت، وهي تشكل عصارة تطور تاريخي ثقافي جمالي، وإنه لمن الجنون بمكان أن يتخلى العرب عن لغتهم التي تميزت بعنفوانها ورقيها عبر التاريخ والانتكاس إلى وضعية لسانية تفتقر إلى مقومات اللغة السليمة فكريا وجماليا ومعرفيا . فاللغة العامية لن تفي بأغراض الفصحى أبدا، وتحتاج فيما لو تطورت إلى قرون مديدة من الزمن لتصل إلى ما حققه صنوها الفصيح من حضارة لسانية. ومن هنا فإن تفصيح العامية وتطويرها في ضوء الفصحى ووفقا لجمالياتها النحوية والأدبية خير وسيلة لتطوير اللغة العربية والارتقاء بها وبقدرتها على التجاوب مع معطيات الواقع والعصر والحضارة . وقد أدرك الرخاوي هذه الحقيقة عندما قال: "إن ما ينبغي علينا أن نبذل فيه قصارى الجهد هو العمل على تحديث الجاهز والممكن والعام، لعلّنا نلحق بالركب، بدلا من الجدل حول تجهيز الفروع الوليدة (اللهجات العامية) التي قد نجد مبررا مستقبليا لتجهيزها بما يناسب فيما بعد"(الرخاوي، ٢٠٠٣) . من المؤكد أن الجاهز والممكن والمتطور الذي يقصده الرخاوي هو اللغة العربية الفصحى، وأن العامية يجب أن تبقى في رعاية الأصل الفصيح، وعلى الفصيح أن يهتدي بواقع الحياة الذي يمثل عصب اللغة العامية أو المحكية التي يجب أن تشكل معينه في رحلة البحث عن الهوية والفكر والحضارة.

خاتمة:

لا بد للغة العربية أن تخلع رداءها المقدس كي ترى الشمس وتلامس الهواء وتختمر في بوتقة الواقع بما ينطوي عليه من خصوبة فكر وثراء حياة . ويجب على العامية أيضا أن تخرج من أوكارها ومن ظلام الأرض لتكون على موعد مع الفصحى في ضوء الشمس وحرارة الحياة . فقدر اللغة العربية أن تطير و ترفرف بجناحيها في ميادين المعرفة، ثم تحلق في ضوء الشمس وعلى جناح الرياح كقوة حضارية تدفع بالثقافة العربية إلى قدر النهضة والمعرفة العلمية و أحضان المستقبل العربي الواعد.

اللغة العربية كيان حي متطور متدفق يجب أن تعارك الحياة، وأن تعترك فيها قوة نهضوية حقيقية لأهلها وأبنائها. ويجب على أهل اللغة العربية إخراج الفصحى من صومعة التاريخ ومن متاحف الزمن المغلقة. وعلى أبناء الأمة أن ينفضوا عنها غبار الزمن الماضي، ويحرروها من صدأ التقديس والحرمان. فاللغة لا تكون قوية في غير المغامرة اللسانية التي تدفع بها إلى التدفق الإبداعي الخلاق. وكنا يقول المثل: البحر الهادئ لا يصنع بحارا ماهرا. وتلك هي حال العربية تحتاج إلى المغامرة في عصر لا يعرف إلا ومضات التغير والتجديد والتبدل .

وقد حان الوقت الذي يجب فيه على الباحثين العرب أن يغمدوا سيوفهم ويضعوا أسنتهم الأيديولوجية، وأن يفكروا بعيدا عن صولة الأيديولوجيا وذهنية الفحولة والصراع . وعليهم أيضا أن يحطموا أصنامهم الأيديولوجية ويكسروا ذهنية الانكسار تحت وقع الأيديولوجيات العقيمة . فاللغة العربية – حالها كحال الثقافة – تحتاج إلى رؤية عقلانية موضوعية متحررة من أثقال الماضي بنماذجه المطلقة المغلقة . فاللغة حياة وعراك وصراع، وسنن الحياة تستوجب التغير والتجدد، وما لا يتجدد يذوي ويموت ويتلاشى حتى وإن كانت اللغة العربية لغة الدين والإيمان والهوية.

حان الزمن لكي نأخذ بمعطيات الواقع ونحترم متغيراته ونأخذ بأسباب النظرة العلمية إلى التاريخ والثقافة والحضارة . فاللغة العربية تحتاج إلى حركة تجديد، والعامية إلى تطوير . والجميع يدرك اليوم أن تقليص المسافة بين الفصحى والعامية يشكل ضرورة حضارية لا مندوحة عنها أبدا. فالحل ليس في الهجوم والتعنت والمغالبة والصراع ،بل في رؤية علمية عقلانية عن طبيعة اللغة ومشكلاتها. وهنا يجب علينا أن نأخذ بتاريخ تطور اللغات والتجارب العالمية في انتشارها والبحث في عناصر قوتها وعظمتها .

وإنني لعلى يقين أن كل أشكال الهجوم على الفصحى تارة، والعامية تارة أخرى، لم تكن ولن تكون سوى تداعيات وقت ضائع على دروب الإصلاح اللساني، وحان الوقت لتعويض ما فات من زمن التغرب والتهتك والصراع الذي يدل على عقم حضاري يتميز بعمقه وشموله. وعلينا قبل أن نهاجم دعاة العامية أن ننظر في أسبابهم الموضوعية، وأن نتفهمها كذلك، وعلينا ألا نغض الطرف عن الظروف والعوامل التي جعلت من دعاة الفصحى يقعون في دائرة التمجيد والتقديس لنماذجها التاريخية القديمة . فاللغة صناعة إبداعية، والشعوب هي التي تصنع اللسان، ومن ينظر في أصول التكوينات اللسانية للغة الإنكليزية سيجد أنها أكثر التكوينات هجانة، ومع ذلك فاللغة الإنكليزية تلتهم العالم

بقوتها وطاقتها وانتشارها واتساعها،. وهذا ليس لمزايا في اللغة الإنكليزية ذاتها بل لأن أهلها أصابوا التقدم العلمي ونالوا كل ضروب القوة الاقتصادية والعسكرية.

إن الضعف اللغوي الذي تشهده العربية اليوم ناجم عن ضعف في قوة العرب وفي إمكاناتهم التاريخية. ومن ثم فإن انحسار العربية وتراجعها مؤشر على تراجع الفعالية الحضارية للعرب. ولن تكون اللغة العربية قوية أبدا ما لم تجد القوة أسبابها في حياتهم الاقتصادية والاجتماعية. ولو كان العرب أقوياء لبلغت العربية أبراج السماء في مستوى حضارتها وتقدمها.

نعم نريد القول مع القائلين إن العربية تحتاج اليوم إلى إصلاح شامل يخرجها من دوائر جمودها وانغلاقها، تحتاج إلى إصلاح يحطم جدران الممانعة ضد التجديد والابتكار . وهكذا فعل الإنكليز والأمريكان الذي طوروا لغتهم وطوعوها لمتطلبات العصر والحداثة فكان من شأنها ما كان من قوة وانطلاق وعزيمة.

نحتاج اليوم إلى إصلاح تربوي تتقاطع فيه السياسة مع الاقتصاد، والثقافة مع المعرفة العلمية والحاضر مع الماضي من أجل إخراج اللغة العربية من عوامل انتكاستها وضعفها وخمولها . ويجب علينا في هذا الإصلاح أن نستفيد من كل التجارب العالمية القديمة والجديدة ومنها التجربة اليهودية في إحياء العبرية التي أصبحت لغة علم ومعرفة بين عشية وضحاها، وعلينا أيضا أن نضح الدماء الجديدة في الجسد العملاق للغة العربية لتكون شاهدا على العصر وفاعلا فيه ومنتجا للمعرفة العلمية في إطار نهضة فكرية وثقافية شاملة.

ليس العيب في لغتنا بل العيب والضعف في أهلها الذين هجروا البحث العلمي وغادروا محراب الحضارة الفكرية منذ أمد بعيد . والعيب كامن في صراعاتنا التي تبدو مخجلة وسخيفة، و في أنساقنا الآيديولوجية القاتلة كما هو العيب في تمترسنا وراء حدود الماضي والنماذج القديمة التي لا يمكنها أن توفر أمنا أو استقرارا، أو تقدم لنا حصانة في زمن الومضات والتموجات الحضارية التي تهتك النماذج وتدك الحصون.

مراجع الدراسة

١. إبراهيم، أحمد عاشور(٢٠٠٧). لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ..الفصحى والعامية، منتديات شبكة الساهر:

http://www.al-saher.net/vb/al-saher٥٩٩١٠.html

٢. ابن منظور، المصري (١٣٠٠ هـ). لسان العرب، ج ٢٠، الطبعة الأولى،مصر: المكتبة الميرية ببولاق.

٣. أحمد، محمد عبد القادر (١٩٩١).اللغة العربية أصلها وأهميتها ووظائفها وتعليمها لطفل المرحلة الابتدائية، مجلة التربية، س ٢٠، ع ٩٦،مارس/ آذار، قطر: اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم.

٤. الأسد، ناصر الدين (٢٠٠٤). مقدمة لدراسة اللغة وهوية الأمة، مجلة ثقافات.

٥. الأنصاري، أريج بنت إبراهيم بن أحمد (٢٠٠٨). بحث مكمل لنيل درجة الماجستير في التربية الإسلامية والمقارنة، عام ١٤٢٨ هـ - ١٤٢٩ هـ. كلية التربية، جامعة أم القرى.

٦. بركات، هاني محمد يونس (٢٠٠٣). الاستشراق والتربية، عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٧. بركة، بسام (٢٠٠٢). اللغة العربية القيمة والهوية، مجلة العربي، العدد ٥٢٨، نوفمبر/تشرين الثاني .

٨. بركة، بسام (٢٠٠٥) . اللغة العربية وتحديات العصر الحديث، مجلة حوار العرب، س١، ع ٥، ابريل نيسان ،٢٠٠٥، (ص ص ٢٣-٣٣) .

٩. بغول، يوسف (٢٠٠٤). ما اللغة؟ ضمن: خالد، يونس خالد(٢٠١٢). التحقق من آراء المستشرق اليهودي البريطاني مارجوليوث في اللغة العربية والشعر الجاهلي، القسم الأول ٢/١

http://www.ao-academy.org/docs/index.php?fl=khalid_younis_khalid_١.doc

١٠.بلاو، جاشوا (٢٠٠٠). نشأة الازدواجية اللغوية في العربية: دراسة في أصول اللهجات العربية الحديثة، في دراسات في تأريخ اللغة العربية، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، الرياض: دار الفيصل،(ص ص ١٨٥-٢٦٠).

١١.بن البراء، يحيى (٢٠٠٤). اللغة والهوية وآفاق التنمية، سلطنة عمان: مجلة التسامح، العدد ٥ .

١٢.بن تنباك، مرزوق بن صنيتان(٢٠٠٥). اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين، في المؤسسات التعليمية في المملكة العربية السعودية، الواقع والتحديات واستشراف المستقبل، محاضرة ألقيت في جامعة الملك سعود، قسم اللغة العربية بتاريخ ١٧ مايو/أيار ٢٠٠٥.

١٣.الجهني، محمد فالح (٢٠٠٩). اللغة العربية: عقبات محلية في طريق العالمية، مجلة المعرفة، العدد ٦٥، سبتمبر / أيلول: http://www.almarefh.org،

١٤.الحباس، محمد (١٩٩٨). اللغة العربية المشتركة واللهجات العامية، مجلة اللغة العربية، الجزائر، مجلس اللغة العربية، العدد ٨، مايو/أيار.

١٥.حجازي، فهمي (١٩٩٧). مدخل إلى علم اللغة، القاهرة: دار قباء .

١٦.حسن، عزت (٢٠١٠). هل الفصحى ضد التقدم؟ .. العامية تغزو ساحات كانت مقصورة على الفصحى، شبكة منتديات الوطن الموريتانية:
http://www.alwatanrim.net/vb/showthread.php?t=٧٤٢٤

١٧.حسين، طه (١٩٧٣). مستقبل الثقافة في مصر، بيروت دار الكتاب اللبناني، المجلد التاسع، الأعمال الكاملة. ص ٢٤٧.

١٨.حسين، محمد محمد (١٩٨١). فقه اللغة بين الأصالة والتغريب، مجلة كلية اللغة العربية بالرياض، عدد ١١.

١٩.خير الله، أسامة (٢٠٠٥). في الهجمة على لغتنا العربية الجميلة، مجلة حوار العرب، س١، ع ٥، ابريل نيسان، ٢٠٠٥، (ص ص ٥٣-٥٤)

٢٠.الدجاني، أحمد صدقي (٢٠٠٠). الفصحى والعامية: العامية اليافاوية..تأملات وتساؤلات، مجلة مجمع اللغة العربية، نوفمبر/تشرين الثاني، ٢٠٠٠، (ص ص ١٥-٤٥).

٢١. الرخاوي، يحيى (٢٠٠٣). اللغة العربية وتشكيل الوعي القومي، شبكة العلوم النفسية العربية:
http://www.arabpsynet.com/Archives/VP/VP.Rakkaoui.ArabLangage.htm

٢٢. الزغلول، محمد راجي (٢٠٠٠). ازداوجية اللغة: طبيعتها ومشكلاتها في سياق التعليم، ضمن مجموعة مؤلفين: (٢٠٠٠) اللغة والتعليم- الكتاب السنوي الثاني – بيروت: الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية.

٢٣. السيد، محمود أحمد (١٩٨٨). في طرائق تدريس اللغة العربية، دمشق: مطبعة جامعة دمشق.

٢٤. الفيتوري، الشاذلي(١٩٨٦). الأسس النفسية والاجتماعية للغة العربية "اللغة والوعي القومي" بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط ٢.

٢٥. الضامن، حاتم صالح (١٩٨٩). علم اللغة، بغداد: جامعة بغداد، كلية الآداب.

٢٦. العايد، سليمان بن إبراهيم (١٩٩٦). علاقة اللغة المنطوقة باللغة المكتوبة في اللغة العربية، محاضرة ألقيت في نادي مكة الثقافي الأدبي بتاريخ ١٤١٧/١٠/١.

٢٧. عبد العزيز، محمد حسن (١٩٩٢). الوضع اللغوي في الفصحى المعاصرة، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، ص ١١.

٢٨. عبد الهادي، عبد الرحمن (١٩٩٣). الذهنية العربية: منظور لغوي، دراسات عربية، عدد٣/٤، يناير/فبراير- كانون الثاني/شباط، (صص١١-٣٠).

٢٩. عبد الواحد، علي (١٩٥١). اللغة والمجتمع، القاهرة: دار الكتاب العربية.

٣٠. عبيد، عبد اللطيف وسويسي، رضا (١٩٩٥). طرائق وأساليب تدريس اللغة العربية في مرحلة التعليم الثانوي في الوطن العربي، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

٣١. القاسمي، علي (٢٠٠٧). انقراض اللغة العربية خلال القَرن الحالي، الشركاء، مارس / آذار:

http://www.voltairenet.org/article١٤٥٩٩٧.html

٣٢.القاسمي، علي (٢٠٠٧) .انقراض اللغة العربية خلال القَرن الحالي، الشركاء، مارس/آذار:

http://www.voltairenet.org/article١٤٥٩٩٧.html

٣٣.القرضاوي، يوسف (٢٠٠٤) اللغة العربية دين وهوية ولغة (برنامج الشريعة والحياة – قناة الجزيرة) مقدم الحلقة: ماهر عبد الله تاريخ الحلقة: ٠٤ /٠٤ /٢٠٠٤.

٣٤.كلفت، خليل(٢٠١٢). الازدواج في اللغة العربية بين الفصحى والعامية، الحوار المتمدن، العدد: ٣٧١٢، ٢٩/٤/: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=٣٠٥٥٠٤

٣٥.كولنج، ن.ي. (٢٠٠٠). الموسوعة اللغوية(مسرد المصطلحات)، ترجمة محي الدين الحميدي وعبدالله الحميدان، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٢١هـ، ج٣، ص ١٠٠٤ .

٣٦.مجلة المعرفة (٢٠٠٩) أحمد الضبيب: أن تدرس بالأجنبية معناه أن تتحول إلى (خواجة) غير معترف به(مقابلة مع أحمد الضبيب)، العدد ٦٥، أغسطس/ آب.

٣٧.المجلس الأعلى للغة العربية (٢٠٠٨) .الفصحى وعاميتها: لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب. أعمال الندوة الدولية التي نظمت بالتعاون مع وزارة الثقافة ضمن فعاليات الجزائر عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٧ المنعقدة يومي ٤-٥ يونيو/ حزيران ٢٠٠٧. الجزائر: المجلس الأعلى للغة العربية.

٣٨.محمود، إبراهيم كايد (٢٠٠٩). التعريب، ماهيته، أهميته، معوقات تحقيقه، الثقافة والتنمية، ع ٣١، يوليو / تموز.

٣٩.المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق، والمجلس الأعلى للغة العربية في الجزائر (٢٠١٠) .الندوة الثامنة لاستخدام اللغة العربية في التعليم العالي في الوطن العربي، الجزائر من ١١-١٣ أكتوبر/ تشرين أول ٢٠١٠ .

40. وطفة، علي أسعد (٢٠١١). علم الاجتماع التربوي، الكويت: مطبعة الفيصل.
Brenstien , Basil (1975) Langage et Classes sociales, Paris L Minuit.

41. De Saussure, F.(1968) Cours de linguistique général , Paris: Payot.

42. Gras , Alain (1974). Sociologie de l'éducations: Textes fondamentaux , Paris: Larousse.

43. Grawitz , Madeline (1984). Méthodes des Sciences sociales , Paris: Dalloz.

44. Marçais , Wiliam (1930). La diglossie Arabe , L'enseignement public , Vol 97 , No.40.